المكابرون

د. عبد الرحمن العشماوي

مكتبات ونشر
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

بسم الله الرحمن الرحيم

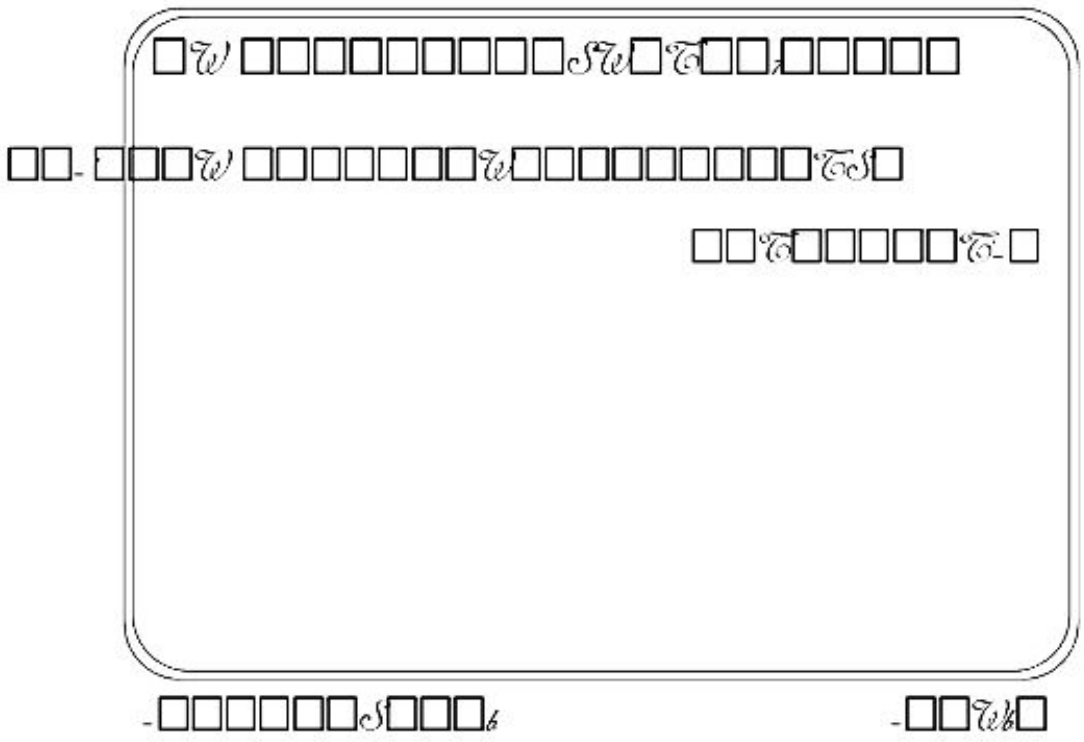

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر

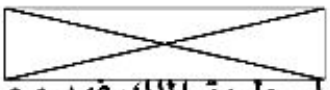

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بين المكابرة والكِبْر

من الكِبْر تنشأ المكابرة، وفي أحضانه ينشأ العناد، وتحت رعايته ينمو سوء الخلق، والعنف، وغلظ الطبع وقسوة التعامل، لأن المكابر متكبِّر، والمتكبِّر لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ولا يسمع صوتاً غير صوت نفسه.

ولذلك كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أبعدَ الناس عن المكابرة، وعن الكبر الذي ينتج عنه سوء الخلق، لأنهم دعاة مصلحون، جاؤوا ليرقوا بالبشرية إلى ذروة العبادة لله، ومن كان مصلحاً صالحاً، فلا يمكن أن يكون متكبراً مكابراً.

ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه في كتابه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وهو المعنى المفهوم من وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19].

إن المكابرة داء خطير تنشره بين الناس جرثومة الكبر القاتلة، التي لا ينجي منها إلا دواء التواضع لله تعالى؛ لأن من تواضع لله رفعه الله.

ومشكلة أهل المكابرة والكبرياء أنهم يقعون في الوعيد الشديد،لأن الكبرياء صفة خاصة بالله عز وجل المتفرِّدِ بصفات الكمال والجلال.

أما البشر فإن الكبرياء منهم سقوط وانحدار، لأنهم ناقصون؛ فهم بمكابرتهم يدَّعون ما ليس لهم.

قال الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «**العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته**».

وورد في الحديث الآخر الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كبر** فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **إن الله جميل يحب الجمال**».

الكِبْر: بطر الحقِّ وغمط الناس.

ومعنى «غمط الناس»: احتقارهم.

إنَّ المكابر المتكبِّر يسلك طريق الهلاك بنفسه، مخدوعاً عن النتيجة المؤلمة، بما يتحقَّق له من متعة التعالي الزائفة.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن ذلك في حديث حسَّنه الترمذي، جاء فيه: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه، حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**».

وما الذي يصيبهم؟؟

يجيبنا رسول الله ﷺ بقوله: «**يحشر المتكبِرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: «بولس» تعلوهم نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار طينة الجنال**».

هكذا تكون النهاية مؤسفة لمن خرج بنفسه عن إطارها الصحيح، ولمن تعالى وتكبَّر، وطغى وتجبَّر.

لقد نقل ابن كثير في الجزء الأول من البداية والنهاية حديثاً قال عنه: إنَّ إسناده صحيح، جاء فيه:عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبَّة سيحان مزرورة بالديباج فقال: ألا إنَّ صاحبكم هذا «يعني النبي ﷺ» قد وضع كلَّ فارس بن فارس، ورفع كلَّ راع بن راع.

قال: فأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام بمجامع جبَّته وقال: «**لا أرى عليك لباس من لايعقل**».

ثم قال له: إنَّ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام لَمَّا حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية.

ـ آمرك باثنتين.

ـ وأنهاك عن اثنتين.

آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفّة، ووضعت «لاإله إلا الله» في كفّه رجحت بهنَّ «لاإله إلا الله».

ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقةً مبهمة، فضمَّتهنَّ «لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده» فإنَّ بها صلات كلِّ شيء، وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن: الشرك والكبر.

قال ابن عمر، قلت: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟

قال عليه الصلاة والسلام: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا حُلّةٌ يلبسها؟

قال عليه الصلاة والسلام؟: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال ﷺ: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال ﷺ: لا.

قال: قلتُ، أو قيل: فما الكبر يا رسول الله؟

قال: «**سفْهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس**».

وأقول: ياله من تحديد نبوي بليغ واضح لمعنى الكبر، وياله من تواضع نبوي عظيم يجعل الصحابة يسألون أسئلة متكررة بهذه الصورة، والرسول عليه الصلاة والسلام ,يصغي إليهم هذا الإصغاءَ، ويجيبهم هذه الإجابة الواضحة!.

ومعنى سفهُ الحق: الاستهانة به.

وغمض الناس: احتقارهم مثل غمطهم.

هذا هو المعنى الشرعي الواضح للكبر والمكابرة.

أما ما ورد في كتب التاريخ والسِّير عن المكابرين، والمتكبرين من أخبار وقصص فهو من العجائب التي تستحق الاطلاع عليها.

ـ مواعظ وعبر.

ـ مواقف عجيبة.

ـ نهايات عجيبة.

ـ حقيقة لا تقبل الشك.

«ماتزال المكابرة بصاحبها حتى تهلكه ومايزال الكبر والعناد بصاحبه حتى يهوي به في مكان سحيق».

ومايزال الظلم والعنف والطغيان، تحطِّم أصحابها، وترسم لهم أبشع النهايات.

في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، قصص لعدد من المكابرين تفتح أمامنا أبواب «**الموعظة والعبرة**» في أجلى صورها.

فأهلاً بكم ومرحباً

عبد الرحمن صالح العشماوي

المكابرون

لايخلو عصر من العصور، ولا مجتمع من المجتمعات البشرية من المكابرين، الذين يرون الحقَّ ولا يتَّبعونه، ويسمعون نداءه ولا يستجيبون له، ويبقون في باطلهم مصرِّين عليه مهما كان الحق واضحاً أمام أعينهم.

والمكابرون من البشر ليسوا من طبقة واحدة فمنهم الغني والفقير، والكبير والصغير، والعالم والجاهل، وقد ورد في السنَّة النبوية المطهَّرة حديث عن «العائل المستكبر» والمقصود بالعائل الفقير الذي لا مال له، بل يحتاج إلى من يعوله، وهو مع ذلك يتعالى ويتكبَّر ويرفض قبول الحق.

إننا نرى المكابرين في حياتنا الدنيا بصور مختلفة، ومستويات مختلفة، وندرك ما هم فيه من الشقاء، وضنك العيش، وضيق الصدر، وعدم قبول النصيحة وكلمة الحق، فنشعر بالشفقة عليهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

ولقد وقفت من خلال تجاربي في الحياة على نماذج من المكابرين، وتأمَّلت حالهم، ورأيت رأي العين النهايات المؤسفة لبعضهم، فوقر في نفسي أن أكتب شيئاً عن هذا المسلك المشين، وكتبت مقالاً قصيراً في زاويتي «دفق قلم» في جريدة الجزيرة عن المكابرين وأحوالهم، مع النصيحة لهم، فوجدت من الصدى لذلك المقال ما دفعني إلى فكرة هذا الكتاب.

توقفت وقتاً أما خطَّة الكتاب، هل أتناول فيه بعض القصص العامة من خلال الواقع المعاش؟ أم أتناول فيه روَّاد مدرسة «المكابرة» الكبار عبر التاريخ لأنَّ حياتهم حافلة بمظاهر تستحق الوقوف عندها، وفيها صورة متكاملة للمكابرة لا تكاد تخرج عنها حياة المكابرين في كل زمان ومكان؟

واستقر رأيي على تناول حياة «قدوات المكابرين السيِّئة» عبر التاريخ.

ثم تساءلت: كم عدد المكابرين البارزين عبر التاريخ إلى يومنا هذا؟ وبحثت سريعاً فوجدت أنني أمام عدد لايمكن استيعابه، وأنَّ كتاباً ضخماً ذا أجزاء كثيرة لن يستوعب إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعداد الكبيرة وبعد قراءة متأملة لحياة بعض المكابرين المشهورين عبر التاريخ، وجدت أن الاقتصار على عدد منهم يعطينا نماذج واضحة للمكابرة، فيها من العظة والعبرة ما يمكن أن ينتفع به الناس، مع ما فيها من الإثارة والتشويق.

«خمسة عشر مكابراً» ملؤوا الحياة ضجيجاً وصخباً، وعاشوها جوراً وطغياناً وظلماً، واعتداءً على الناس وسلباً للحقوق، وغادورها مهزومين مخذولين، قد خسروا دنياهم وآخرتهم خسراناً مبيناً.

لقد كان ودي أن أضمَّ إليهم نماذج من المكابرين المعاصرين البارزين، الذين يحيدون عن الحق وهم يعرفونه ويرونه رأي العين، ولكنني آثرت أن أتركهم لطبعة أخرى من هذا الكتاب، أو كتاب آخر خاص بهم ـ إن شاء الله ـ لأنني أتوقع لبعضهم نهايات سيئة مثيرة،

تبعاً لسنة الله عز وجل في هذا الصنف من عباده، تلك السنة التي لاتنقطع حتى تنقطع الحياة البشرية عن هذه الأرض؛ إن كنت ممن سيرى نهاياتهم المحتومة مع أنني قد رأيت نهايات بعضهم، كما رآها ملايين البشر من خلال الأحداث الأخيرة في العالم التي تتسابق وسائل الإعلام في عرضها، ونشرها تفاصيلها بالصوت والصورة.

إنَّ المكابرين الذين تناولتهم في هذا الكتاب يقدِّمون لنا أسوأ النماذج البشرية التي توغل في غرورها وغفلتها حتى يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، وإنَّ حياتهم لحافلة بالمواعظ لمن كان له قلبٌ حيٌّ ونفسٌ مطمئنة تتأثر بالموعظة، وتستفيد من دروس الحياة.

أرجو أن تكون رحلة القراء الكرام ماتعةً مفيدةً مع هذا الكتاب، وما أجمل أن أحظى بالنصيحة والتوجيه، والله المستعان.

د. عبد الرحمن العشماوي

المكابر الأول
«أبى واستكبر»

هو حامل لواء المكابرة بلا منازع، وهو قائد المتمردين بلا منافس، وقدوة العاصين المارقين والخارجين على الأنظمة والقوانين.

أعمته مكابرته، فوقف أمام مالك الملك، وخالق الخلق، ومبدع الكون، ناسياً نفسه، غافلاً عن حجمه، مغروراً بمادة تكوينه «النار» متجاهلاً أنه لم يخلق نفسه، ولم يخلق النار التي خلق منها، وأنه لا حول له ولا قوة في شيء من ذلك.

إنه «المكابر الأول» إبليس نعوذ بالله من شره ووسوسته وعصيانه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34].

هنا موقف عظيم، مخلوق خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلَّها، ومنَّ عليه سبحانه بكرامته، فجعله كريماً.

ثم أمر الملائكة بالسجود تكريماً لهذا المخلوق، فسجد الملائكة كلهم، إلا ذلك المكابر، فقد أبى أن يسجد، وقد نصّت الآية على سبب ذلك: «أبى واستكبر».

يورد ابن كثير في هذا الشأن عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنّ، خلقوا من نار السَّموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزَّان الجنة.

قال: وخلقت الملائكة كلُّهم من نور، غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار.

فأول من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء، وقتل بعضهم بعضاً.

قال: فبعث الله إليهم إبليس في جندٍ من الملائكة ـ وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجنّ ـ فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور، وأطراف الجبال، فلمَّا فعل إبليس ذلك اغترَّ في نفسه فقال:

قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فقال الله للملائكة الذين كانوا معه: «إني جاعل في الأرض خليفة» فقالت الملائكة مجيبين له: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، كما أفسدت الجن، وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم لذلك؟

فقال: «إني أعلم ما لا تعلمون»، يقول سبحانه: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كِبْره واغتراره.

قال: ثم أمر الله سبحانه وتعالى بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ اللاَّزب: اللَّزج الصَّلب ـ من حمأ مسنون ذي رائحة منتنة، وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب، فخلق منه آدم بيده.

قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، ويصلصل، أي: يصوِّت، قال: فهو قوله تعالى ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمصمت، قال: ثم يدخل إبليس في ذلك الجسد ويخرج، ثم يقول: لست شيئاً، ولشيءٍ ما خلقت،

ولئن سلِّطت عليك لأهلكنك، ولئن سلِّطت عليَّ لأعصينَّك، قال: فلما نفخ الله في جسد آدم من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لايجري منها شيء في جسده إلا صار لحماً ودماً، فلما انتهت النَّفخة إلى سرَّته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ قال: معناها أنه ضجر لا صبر له على سرَّاء ولا ضراء، قال: فلما تمَّت النفخة في جسده عطس فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام من الله له.

فقال له: «يرحمك الله يا آدم»، ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصةً دون الملائكة الآخرين الذين في السماوات:

اسجدوا لآدم، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس «أبى واستكبر» لما كان حدث في نفسه من قبل من الكبر والغرور، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار، وخلقته من طين.

قال: فلما أبى إبليس أن يسجد، أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كلِّه، وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته.

تفسير ابن كثير: الجزء الأول ص 98.

وفي سياق آخر عن ابن عباس قال:

كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمة «عزازيل»، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر والاغترار بنفسه، وكان من حيٍّ يسمَّون جنّاً.

كان إبليس، اسمه «عزازيل»، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بمعصيته.

وفي سياق آخر أيضاً:

كان إبليس من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وقال ابن عباس أيضاً: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم «الجنّ»، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السَّماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

مع أن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قطّ، وإنه لأصل الجنّ، كما أ نَّ آدم أصل الإنس.

وعن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبي إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبَّد معها، فلما أمرهم الله بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50].

قال قتادة:

حسد عدوُّ الله إبليس آدم عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيّ، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

وقد ثبت في الصحيح:

«لايدخل الجنَّة من في قلبه مثقال حبَّة خردل من كِبْر».

وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرَّحمة، وحظيرة القدس.

«وكان من الكافرين»: الذين أبوا واستكبروا وعصوا، أيْ إنَّ عصيانه جعله من الكافرين المبعدين عن رحمة الله، وجنَّته.

«المكابرة والعناد والغرور» هي أوَّل ما عصي به الله عز وجل، وهي أوَّل ما هلك بها مخلوق من مخلوقات الله.

إنها الأساليب الشيطانية التي بدأ بها إبليس فكان من الهالكين.

الكبرياء ليست للمخلوقات الضعيفة، إنما هي لله القوي العزيز، فالمخلوق مخلوق، سواءٌ أكان خلقه من التراب، أم من النور، أم من النار، مع وجود التَّمايز بين هذه العناصر.

أما الخالق القادر فهو الذي تليق به الكبرياء.

هذا هو المكابر الأوَّل الذي فتح باب المكابرة على مصراعيه السَّوداوين، ونفخ نفسه نفخة كاذبة، كانت سبباً في هلاكه وضياعه، واستحقاقه عذاب الجحيم.

إنها صورة قرآنية واضحة للمكابر الأول «الشيطان الرجيم» رسمتها آيات القرآن الكريم ببلاغة وبيان، فما عاد لأحد ممَّن يطَّلع عليها عذرٌ في أن يهلك بالمكابرة والغرور.

لقد كابر «إبليس» فحقَّ عليه غضبُ الله، وظلَّ بعد استحقاقه لغضب الله على كبريائه وغروره، وانطلق بعد المكابرة إلى الكيد والخداع، فأخذ يكيد لأبينا آدم عليه السلام، ويخدعه، ويتظاهر بأنه يريد مصلحته حتى أوقعه في الخطأ الذي أفقده وأفقد ذريته حياة الجنة الناعمة.

ولكن آدم عليه السلام تاب فتاب الله عليه، لأنه كان سليماً من داء المكابرة والاغترار، وداء الحسد والبغضاء. أما إبليس فأبى بسبب مكابرته أن يتوب؛ بل طلب من الله الإمهال ليستمر في ضلاله ومكابرته، فأمهله الله عقاباً له، وابتلاءً لآدم وذرّيته.

أين هو هذا المكابر العنيد؟

هو في هذا الكون، مستمر في مكابرته، وكيده للإنسان، حريص كلَّ الحرص مع جنوده على إهلاك من يستطيعون من البشر بمثل ما هلكوا به.

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ أخبرهم: أنَّ عرش إبليس في البحر، يبعث سراياه في كلِّ يوم يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة للناس.

ويروي جابر عن رسول الله ﷺ **«أنَّ الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلانٍ تركته وهو يقول: كذا وكذا.**

فيقول له إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً.

ويجيء أحدهم، فيقول: ما زلت بفلان فما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله، فيقرِّبه إبليس ويقول له: نعم، أنت، أنت.

أي أنت الذي تستحق الإكرام»

رد في مسند الإمام أحمد

ومن طرائف ما رأيت: أنَّ رجلاً تعرَّض لمحاولات متكرِّرة من رجلٍ آخر، حاول فيها إغراءه لقبول رشوة في موضوع ما، قال: وما زلت أصدُّه، وهو يزيِّنُ الأمر لي، ويهوِّنه، ويسمِّيه بغير اسمه، ويحاول أن يؤكد لي أنه من باب الهدية، وتقدير الجهد، وأنه ما دام ليس فيه ضرر على أحدٍ آخر فليس فيه حرام ولا شبهة حرام، قال: وتخيَّلت صورة إبليس وهو يحلف لآدم وحوَّاء عليهما السلام إنه لهما من الناصحين حتى أغراهما بالأكل من الشجرة المحرَّمة عليهما مستخدماً كل وسائل اللين والرِّقة والإغراء والخداع، والكذب.

فقلت في نفسي: ما هذا الذي يدعوني الآن للرشوة ويهوِّنها عليَّ إلا تابع لذاك الذي هوَّن على آدم وحواء الأكل من الشجرة.

فلما جاءني في إحدى محاولاته، طلبت منه أن يصغي إليَّ قليلاً، ففعل، فذكرت له قصَّة إبليس حتى انتهيت منها، سألته: ما رأيك؟

قال بصراحة: لقد شعرت من خلال روايتك لقصتِه أنك تتحدَّث عن محاولاتي معك، ثم سكت قليلاً وقال: جزاك الله خيراً، لقد اتضح لي الحقّ.

وأقول: لو أن كلَّ مكابر مخادع مغرور راجع نفسه على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لما وقع في مستنقع المكابرة أبداً.

كابر إبليس فسقط إلى الأبد.

فأيُّ عاقل ـ يا ترى ـ يرضى أن يقتدي بهذا المكابر الأوَّل الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين؟

وأيُّ عاقل يرضى أن ينتسب إلى تلك المدرسة الخبيثة: «**مدرسة الذنوب الشيطانية**».

يقسم بعض أهل العلم الذنوب إلى أربعة أقسام، تتكوَّن منها المدرسة الشيطانية للذنوب التي يشرف عليها ويديرها إبليس ـ لعنه الله ـ.

وهي مدرسة قديمة، خبرة مديرها خبرة عظيمة، ونهاية تلاميذها نهاية أليمة. ومع أن مدير مدرسة الذنوب قد وزَّع ذرّيته على أنحاء الدنيا، وفتحوا الجامعات، والكليات، والمعاهد والمراكز الشيطانية ذات الخبرة العالية في مجال الإغواء والوسوسة والإفساد، وإثارة الشبهات والشهوات.

إلاَّ أنه قد ظلَّ هو محتفظاً بإدارة مدرسة الذنوب الشيطانية القديمة التي أنشأها منذ أن طرده الله من الجنة وغضب عليه.

أما الأقسام الأربعة فهي:

1- قسم الذنوب الشيطانية:

وهو من الأقسام المهمة التي تعلِّم من يدخلها من الإنس والجن أصناف الذنوب التي يتعاطاها الشيطان نفسه وهو قسم كبير يتكون من عدد من الفصول الدراسية الشيطانية:

الحسد ـ البغي ـ الغلّ ـ الخداع ـ المكر ـ الكذب ـ تحسين المعاصي وتهوينها ـ تقبيح الطاعات وتثقيلها ـ البدع ـ الضلال ـ إثارة الشُّبه.

يالها من فصول ذات خطر كبير على الدارسين.

2- قسم الذنوب الملكية:

وهو قسم خطير يتكون من عدد من الفصول الدراسية التي تغري الدارسين بما فيها من البريق الذي تنخدع به النفوس المريضة.

ومن أهم فصول هذا القسم:

العظمة ـ الكبرياء ـ الجبروت ـ القهر ـ التَّعالي بغير حقّ ـ استعباد الناس ـ الشرك بالله ـ احتقار الضعفاء ـ.

ونلاحظ أن هذا القسم بفصوله أخطر قسم في هذه المدرسة المشؤومة، لأنه قائم على «الكبرياء» وفي هذا منازعة لله عز وجل، وهذه المنازعة هي طريق الهلاك بلا شك.

3- قسم الذنوب السبعية:

وهو قسم مهم يتضمن عدداً من الفصول هي:

العدوان ـ الغضب ـ سفك الدماء ـ السَّطو على حقوق الآخرين ـ الظلم ـ أكل مال اليتيم والمسكين ـ القسوة والعنف.

4 - قسم الذنوب البهيمية:

وفيه الفصول التالية:

الشَّره ـ شهوة البطن والفرج ـ الزّنا ـ السرقة ـ البخل ـ الهلع ـ الجزع ـ التهوُّر ـ الجرأة على المعاصي ـ قلَّة الحياء.

مدرسة الذنوب الشيطانية			
قسم الذنوب الشيطانية	قسم الذنوب الملكية	قسم الذنوب السَّبُعيَّة	قسم الذنوب البهيمية
الحسد ـ البغي	العظمة ـ الكبرياء	العدوان ـ الغضب	الشَّره
الغلّ ـ الخداع	الجبروت	سفك الدماء	شهوة البطن والفرج
المكر ـ الكذب	القهر	السَّطو على حقوق الآخرين	الزِّنا
تحسين المعاصي وتهوينها	التعالي بغير حق	الظلم والاعتداء	السرقة ـ الهلع
تقبيح الطاعات	استعباد الناس	أكل مال اليتيم والمسكين	التهور
البدع	الشرك بالله	القسوة والعنف	الجرأة على المعاصي
الضلال	احتقار الضعفاء		قلَّة الحياء
إثارة الشُّبه			

إنها مدرسة الضلال التي رفع صاحبها أسوأ شعارات التمرُّد والعصيان والمكابرة، والحسد الذَّميم.

إن كلَّ من ينتمي إلى المكابرة، يرفع الشعارات نفسها التي رفعها المكابر الأول «الشيطان الرجيم»، فإن النفوس المريضة تستأنس بالشعارات الصارخة التي تصادم الحق:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76].

﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82].

﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 62].

﴿اكْفُرْ﴾ [الحشر: 16].

﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ [النساء: 118].

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119].

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

هذه هي الشعارات التي رفعها وما يزال يرفعها المكابر الأوَّل صاحب المدرسة الشيطانية المشؤومة، وهي الشعارات ذاتها التي يرفعها دعاة الرذيلة، وحاملوا لواء الضلال والانحراف في كل زمان ومكان فما أجدر الإنسان المؤمن الواعي بالبعد عنها !!.

المكابر الثاني
«فأصبح من النادمين»

هو أوَّل من تخرج في مدرسة المكابرة والبغي والحسد والظلم التي أنشأها المكابر الأوَّل «إبليس» نعوذ بالله منه.

نعم؛ لقد حمل شهادة مدرسة الذنوب الشيطانية، قسم الحسد والبغي والمكابرة بجدارة واقتدار.

لم يتراجع عن بغيه وظلمه، ولم يستجب لدعوة أخيه إلى الحلم، والرحمة والإحسان، وكيف يستجيب لذلك وهو تلميذ نجيب لرائد البغي والحسد والمكابرة الذي خرج من جنة عرضها السماوات والأرض بإصراره على مكابرته؟!

إنه المكابر الثاني «قابيل» بن آدم عليه السلام الذي نفذ أوَّل جريمة قتل في حياة البشرية، وأقدم على أبشع عمل يمكن أن يقوم به أخ مع أخيه.

عن ابن مسعود وغيره من الصحابة ﷺ قال: إنَّه كان لايولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن، جارية هذا البطن الآخر، ويزوِّج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما : قابيل وهابيل.

وكان قابيل صاحب زَرْع، وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما.

وكان له أخت أحسن من أخت هابيل.

وأنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال : هي أختي.. ولدت معي..

وهي أحسن من أختك..

وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها.

فأمره أبوه أن يزوِّجها هابيل، فأبى.

وأنهما قرَّبا قرباناً إلى الله ـ عز وجل ـ، أيُّهما أحقُّ بالجارية.

وكان آدم عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكَّة ينظر إليها، قال الله عز وجل لآدم:

هل تعلم أنَّ لي بيتاً في الأرض؟

قال: اللهم لا.

قال: إنَّ لي بيتاً في مكَّة فأته.

فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت.

وقال للأرض: فأبت.

وقال للجبال: فأبت.

فقال لقابيل: فقال: نعم، تذهب، وترجع وتجد أهلك كما يسرُّك.

فلما انطلق آدم عليه السلام «إلى مكة» قرَّب قابيل وهابيل قرباناً، وكان قابيل يفخر على أخيه فقال: أنا أحقُّ بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصيُّ والدي.

فلما قرَّبا.

قرَّب هابيل جذعة سمينة.

وقرَّب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل.

فغضب وقال: لأقتلنك حتى لاتنكح أختي.

فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص55

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهي «آدم» عليه السلام، أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد لآدم في كلِّ بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة "أي: جميلة"، وولد له أخرى قبيحة دميمة.

فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك، وأنكحك أختي.

قال: لا، أنا أحق بأختي، فقرَّبا قرباناً فتقبل «الله» من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنَّ الله سبحانه وتعالى قبل الكبش من صاحبه، فخزنه في الجنة أربعين خريفاً، فهو الكبش الذي ذبحه ابراهيم عليه السلام «فداء لإسماعيل».

وتشير بعض الروايات إلى أنَّ هابيل قدَّم أكرم غنمه وأحسنها وأسمنها وكان طيب النفس بما قدم.

أما قابيل فقدم أشرَّ حرثه، غير طيبة بذلك نفسه، فتقبل الله سبحانه وتعالى قربان هابيل.

وتشير بعض الروايات إلى أن آدم عليه السلام قال لقابيل: يا بنيَّ إنها لا تحلُّ لك، فأبى أن يقبل ذلك من قول أبيه، فأمرهما أن يقربا قرباناً، وقال: أيّكما يقبل الله قربانه يكون أحقَّ بها، فقبل الله قربان هابيل.

وتشير روايات أخرى إلى أن قابيل وهابيل كانا قاعدين، فقالا: لو قرَّبنا قرباناً، ولم يكن في وقتهما مساكين يأخذون الصدقة، وإنما كانت القرابين، فكان الرجل منهم إذا قرب قرباناً فرضيه الله، أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النَّار.

فقرَّبا قربانهما: قربان قابيل من الزَّرع، وقربان هابيل من الغنم، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان أخيه، فقال قابيل لأخيه، أتمشي في الناس وقد علموا بأن قربانك قد قبل، وقرباني ردَّ عليَّ؟

لا والله لا ينظر الناس إليك وإليَّ، وأنت خير منِّي، لأقتلنك.

فقال له هابيل: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

ومهما اختلفت الروايات في شأن هذين الأخوين، فإنَّ أصل القصة ثابت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والعبرة بما جرى بعد ذلك.

لقد تحركت عوامل الحقد والحسد في قلب قابيل، فأغلقت عليه مسارب الحكمة والرحمة، وأعمت عينيه عن رؤية الحق، وأصمَّت سمعه عن سماع كلمة الحق الواضحة.

لأقتلنك: عبارة صاغها الحقد، وصرخ بها الحسد، ونفَّذها عملياً البغي، وكانت المكابرة هي التي توَّجت الموقف، لأنها جعلت قابيل أعمى وأصمٌ أمام نصيحة أبيه، وحكمة وسعة صدر أخيه، وإلاَّ لو أنَّ نفسه تواضعت، لما قال ـ أصلاً ـ: لأقتلنك.

ولو أنَّه سلم من مكابرته القاتلة، لتأثَّر بقول أخيه وتراجع عمَّا عزم عليه من اعتدائه الأثيم.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 28-29].

كلام صريح واضح لايمكن أن تتجاوزه النفس المتواضعة، والقلب السليم، كلام فيه الموعظة، وفيه الحكمة، وفيه الورع، وفيه التحذير من عذاب الله.

ولكنَّ ذلك كلَّه يتلاشى أمام حقد "المكابر" الذي لم يعد يفقه الحق، ولا يعرف معنى الرفق.

ماذا كانت النتيجة؟

طوَّعت له نفسه المكابرة، ووجدانه المغلق قتل أخيه، فقتله بإصرار وتصميم.

هنا وصل به حقده وبغيه ومكابرته إلى أقصى درجات العنف.

وهنا أصبح من الخاسرين، وهذا إخبار إلهي بأنَّ الخسارة قد أصبحت هي النتيجة الحقيقية لهذا الذي جرى، ويالها من خسارة عظيمة للدنيا والآخرة.

لقد هوت المكابرة بصاحبها إلى أسفل سافلين، فها هو ذا يقلِّد الغراب الذي دفن غراباً آخر في التراب، فيدفن جثَّة أخيه المظلوم، في منظر حزين أليم.

«فأصبح من النادمين».

روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قوله: «**لاتُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوَّل كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوَّل من سنَّ القتل**».

ونقل ابن كثير عن مجاهد في كتاب التفسير قوله:

عُلِّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، وجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

وأقول: كم من مكابر وقع في خندق الندم الذي وقع فيه قابيل بعد قتل أخيه.

المكابر الثالث
«سآوي إلى جبل»

كل الدَّلائل التي جرت عبر مئات السنوات، تؤكد أنَّ أولئك القوم في طريقهم إلى الهلاك، نعم، عَبْر مئات السنوات، لأن الفترة التي ظهرت فيها تلك الدلائل القاطعة امتدت على مدى «تسعمائة وخمسين عاماً» «ألف سنة إلا خمسين عاماً».

فما الذي جرى في هذه المدة الطويلة؟

دعوةٌ صادقة، وإرشاد إلى عبادة الله لا ينقطع، وسعيٌ إلى الهداية والإصلاح لا يتوقف، وبيان للحق والخير والهدى والصلاح لا يتراجع، وحرصٌ على نجاة الناس، وخلاصهم من الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

تسعمائة وخمسون عاماً، اتضحت فيها معالم الحق، وظهر فيها الإيمان الصحيح، وتجلَّى فيها الصبر في أرقى صوره وأسماها، كما تجلت فيه مكابرة المكابرين في أبشع صورها وأقساها. في هذه الفترة الطويلة، كان هذا المكابر الثالث يعيش، وكان من أقرب الناس إلى صاحب الدعوة، وحامل لواء الحق والخير والإرشاد والإصلاح، فقد كان يعيش معه في داخل أسرته، يرى حقيقة دعوته، ويلمس صدق عزيمته، ويسمع صافي حكمته، ويطلع على صلاح منهجه وشريعته، ويعرف معرفة اليقين توافق علانيته مع سريرته.

إنه ابن حامل لواء الدعوة، ورافع شعار النبوة، ومبلِّغ تعاليم الرِّسالة، وهل هنالك أقرب من الابن إلى أبيه؟!

وإنَّ من يعيش في هذه الأجواء، جديرٌ بأن يكون أوَّل المستجيبين للحق من الخلق، وأوَّلَ المميزين بين الكذب والصِّدق، وأوَّل المتبعين للإيمان، والمستمتعين بحلاوة اليقين.

لكنَّ هذا المكابر ظلَّ محجوزاً عن هذا الخير كلِّه بمكابرته، بعيداً عن مصادر النور مع أنَّه يخالطها ويراها كلَّ يوم.

إنَّ حجاب المكابرة حجابٌ كثيفٌ غليظ ـ نعوذ بالله منه ـ لا يستطيع من يعيش وراءه أن يرى مصادر النور أبداً ولا يقدر أن يستوعب معاني الخير أبداً، ولا يستطيع أن يعرف طريق النجاة أبداً.

هنالك رجلٌ أصبح على يقين بعد مرور مئات السنوات، أنَّ قومه قد تجمَّدوا على المكابرة، وتيبَّسوا على العناد، ولم يعد للموعظة عندهم مكان، ولا للدعوة فيهم تأثير.

وما داموا كذلك، فماذا تنفع النُّذر مع قوم لا يؤمنون.

إنه «نوحٌ» عليه السلام، نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوج، أول الأنبياء والرسل بعد آدم عليه السلام.

ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام».

فإذا كان المقصود بالقرن ما هو متعارف عليه «مائة سنة» فإن بينهما «ألف سنة».

وإن كان المقصود بالقرن الجيل من الناس كما قال الرسول ﷺ : «**خير القرون قرني..**».

فلربما كان بين آدم ونوح ألوف السنوات لأن الأجيال كانت تطول أعمارها في ذلك الزمان.

بعث الله «نوحاً» عليه السلام إلى الناس بعد أن انحرفوا عن الإسلام، وعبدوا الأصنام، وكان عمره يوم بعث خمسين سنة، في بعض الأقوال، وقيل: إن عمره كان ثلاثمائة وخمسين سنة يوم بعث، وقيل كان أربعمائة وثمانين سنة ـ والله أعلم ـ.

ظلَّ ـ عليه السلام ـ يدعو، ويدعو، ولكنَّ الناس كانوا في غيبوبة شهواتهم، فلم يؤمن معه إلا قليل من قومه، وطال أمدُ دعوته حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي أوقفت نوحاً عليه السلام أمام الحقيقة الناصعة.

﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ [هود: 32].

لم يعد هنالك أملٌ في هؤلاء الناس، ولكنَّ قلب نوح كبير ما يزال يرجو أن تفتح الأبواب المغلَّقة.

ولكنَّ الأمر قد حسم حسماً قاطعاً بعد ذلك حينما أوحي إلى نوح أن قلوب القوم قد أصبحت أقسى من الحجر الصَّلد.

﴿**وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ [هود: 36-37].

«إنهم مغرقون».

كيف يكون ذلك؟

قال بعض السلف:

أمر الله تعالى نبيه نوحاً عليه السلام أن يفرز الخشب، ويقطعه ويُيَبِّسَهُ، فكان ذلك في مائة سنة، ونجَّرها في مائة سنة أخرى، وقيل في أربعين سنة ـ والله أعلم ـ.

وقال ابن كثير:

ذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أنَّ الله أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع السفينة من خشب السَّاج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً «أي رأساً» أزور «أي: مائل» يشقُّ الماء.

وهنالك آراء أخرى متعددة في طولها وعرضها حتى بلغ بها بعضهم إلى طول ألفي ذراع في عرض مائة ذراع.

واتفق الرواة على أنَّ ارتفاع السفينة كان ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع.

الطبقة السُّفلى للدواب والوحوش.

والوسطى للإنس.

والعليا للطيور.

(1) المانوية ـ ديانة فارسية أسسها ماني وهي مزيج من الزرداشية واليهودية والمسيحية ـ ثنائية تومن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

وكان باب السفينة في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبقٌ عليها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40].

هذا عمل كبير ظلَّ يجري أمام الناس سنوات طويلة، ولقد كان جديراً بأن يثير في قلوبهم الإحساس بما وراءه لاسيما أنَّهم يعرفون صدق نوح ومثابرته وجدَّه، ولكنَّ داء المكابرة والاغترار أعماهم، فكانوا يسخرون من نوح كلَّما مرُّوا به ورأوه يشتغل في بناء السفينة.

وكان من بين هؤلاء الناس «المكابر الثالث» كنعان بن نوح الذي عميت بصيرته، وقعدت به همَّته، فسخر مع الساخرين، وأعرض مع المعرضين، وهلك مع الهالكين.

لمَّا فار التنُّور الذي كان في بيت نوح وهو علامة وضعها الله لنوح عليه السلام كما تقول الروايات، علم نوح أن عقاب الله قد حان، وأن الطوفان، وما أدراك ما الطوفان، سيغمر الأرض ويغطي كلَّ مكان.

ركب السفينة:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: 41].

هنا رأى نوح ابنه "كنعان" الذي كان منعزلاً عن أبيه في تلك اللحظة، ونادى حينما بدأت السفينة تتحرك، والماء يرتفع:

«يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين»

صورة واضحة لا تحتاج إلى تأويل، وحدثٌ بارزٌ أمام العيون لا يحتاج إلى إعمال ذهن، ونبيٌّ صادق مصدوق، وأبٌ حنون حريص على ولده، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يكن ذا أثرٍ في نفس ابن أعمته مكابرته فما عادت ترى عيناه إلا الجبل الشامخ الذي أمامه.

جبل شامخ ضخم، هامته العالية تكاد تناطح السحاب، هذا كلُّ ما كانت تراه عينا «كنعان بن نوح».

أما ذلك الإيقاع الأبوي الحاني المؤثِّر في صوت الأب الحريص على ولده حينما قال: «يا بني اركب معنا».

فلم يكن ليصل إلى قلب مغلفٍ بالعناد والمكابرة ولهذا كانت الإجابة المباشرة كما جاء في القرآن الكريم: ـ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ـ كلام مادي بشري باهتٌ لا قيمة له في مثل هذا المقام، ولو كان قلب الابن المكابر حيّاً لاستيقظ حينما قال له أبوه نوح عليه السلام مباشرة:

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

إنها الجملة الأبويَّة النَّبوية الحانية الأخيرة في هذا المقام، ولكنَّ الابن كان غارقاً في بشريته الناقصة، المنسوجة بخيوط المكابرة الغليظة.

ماذا كانت النتيجة؟

«وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» هكذا تكون نهاية المكابرين، هلاكاً وضياعاً وخسارةً كبيرة في لحظات.

ومضت السفينة ناجيةً من ذلك الطوفان العظيم الذي غمر كلَّ شيء، ولم يبق على ظهره إلا تلك السفينة التي كان يسخر منها الساخرون، ويستهزيء بمن يبنيها المكابرون.

ومضت السفينة باسم الله تعالى مائة وخمسين يوماً كما تقول الروايات، حيث انطلقت في عاشر شهر رجب، واستقرَّت بهم على الجوديِّ شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرَّم، ويقال: إنهم صاموا هذا اليوم شكراً لله على نجاتهم.

أينَ يقع جبل الجوديّ؟

قيل: إنه جبل بالموصل، وقيل: هو الطور، وقيل هو جبل بالجزيرة في أرض العراق تواضع لله سبحانه وتعالى فلم يغرق، وقد غرقت كل الجبال.

قال قتادة فيما نقله عن ابن كثير في تفسيره:

قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي بأرض الجزيرة عِبْرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة.

هبط نوح ومن معه إلى أسفل جبل الجودي، فابتنى قرية تستوعب الثمانين الذين كانوا معه، فسميت: «قرية الثمانين».

قال ابن كثير: فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان نوح يخاطب كل فئة منهم بلسانها.

هنا استقرت الأمور، وهلك المكابرون، وقضى عليهم الطوفان ـ بإذن الله ـ بعد مئات السنوات من الإنكار والجحود.

وهنا استيقظت عاطفة الأبوَّة من جديد:

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

نوح هنا يستفهم من ربّه عن حال ولده الذي أبى أن يركب السفينة فغرق، وفي ذهنه عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى له: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40].

فالأهل هنا عامة لا استثناء فيها كما يبدو لأوَّل وهلة مع أن الاستثناء قد أتى مباشرة بعد هذا الجزء من الآية: ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

سؤال من أب حنون، من قلب الأب الذي لا يحمل إلا الحب والعطف والشفقة على الإبن.

سأل نوح ربَّه سؤال استعلام مشيراً إلا أن الله وعده بنجاة أهله، وأنَّ وعده الحق، متأدباً مع ربِّه سبحانه كلَّ التأدُّب حين قال: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

هنا كان الجواب الإلهي الحاسم.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46].

لقد خرج الابن «كنعان» عن دائرة الأهل الذين وعد الله بنجاتهم، فالله قد وعد بنجاة من آمن، وهذا الابن لم يؤمن فكان ممن سبق عليهم القول، وكانت نهايته المؤلمة مناسبة لعناده ومكابرته وعدم إيمانه.

هنا هدأ جيشان العاطفة الأبويّة، وبرز الشعور العميق بالإيمان واليقين والاطمئنان، وطلب المغفرة من ربٍّ العالمين.

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42].

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43].

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 43].

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 43].

هكذا كانت نهاية المكابر الذي أضاع دنياه وآخرته لأنه باع عقله لهواه.

«اللهم إنا نعوذ بك من الضلالة بعد الهدى»

مسائل

ذكر صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار خمس مسائل تتعلَّق بقضية نوح عليه السلام، وقومه، وابنه، وزوجته، والسفينة، رأيت في طرحها هنا ما قد يضيف إلى معلوماتنا عن قصة نبي الله نوح عليه السلام ما فيه فائدة.

المسألة الأولى:

هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟

الجواب:

من العلماء من قال بعموم الطوفان على الأرض كلها، ويشير بعض علماء الجيولوجيا إلى وجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء، في أعالي الجبال، وهذا يشير إلى وجود طوفان كان سبباً في ذلك:

ومن العلماء من قال بعدم عموم الطوفان على الأرض، بل كان على جهة من الأرض كان فيها نوح وقومه، ومن يعيش على الأرض من البشر.

أما القرآن الكريم فلم يشير إلى شيء من ذلك، وإنما عرض الموضوع عرضاً عاماً بدون تفاصيل، ولم يرد شيء ثابت في السنة يحدِّد هذا الموضوع.

أما موقفنا نحن فهو الإيمان بحقيقة القصة ووقوعها، ويظل عموم الطوفان على الأرض، وخصوصه على جزء منها أمرين محتملين، كلاهما في الحكم سواء.

وقد غلَّب صاحب كتاب قصص الأنبياء الخصوص بقوله: والذي أميل إليه أن يكون «الطوفان» خاصاً، وأن النوع البشري لم يكن منتشراً في الكرة الأرضية كلِّها، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح عليه السلام وذريته ومن معه.

قصص الأنبياء: ص36

المسألة الثانية:

ما ذنب الأطفال الأبرياء الذين هلكوا مع قوم نوح من أبنائهم وأحفادهم؟

الجواب:

إنَّ عموم ما يقدِّره الله على البشر من مظاهر الابتلاء أو العقاب معروفة على مدى الزمن، فهي داخلة في قضاء الله وقدره الذي لا يردُّ، فمتى حان أجل الناس صغاراً أم كباراً وقع بإرادة الله.

وهذه الزلازل والأعاصير والحوادث المختلفة تختطف الصغار والكبار والمجرمين والأبرياء، والمحسنين والمسيئين، فلا يملك الناس إلا الصبر والرِّضا بما قدَّر الله سبحانه وتعالى.

ولكل واحد من هؤلاء عند ربِّه مقام معلوم.

المسألة الثالثة:

أين جبل الجودي الذي استوت عليه السفينة؟

الجواب:

يقول النجَّار صاحب كتاب قصص الأنبياء: جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو يتصل بجبل أرمينية.

قال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويطلق عليه في التوراة إسم «أراراط».

المسألة الرابعة:

ما حجم سفينة نوح؟

الجواب:

لم ينص القرآن الكريم على ذلك، وإنما وصفها الله بـ «الفلك المشحون» وبأنها «ذات ألواح ودسر» والدُّسر هي: المسامير.

أما في كتب بني إسرائيل فقد ورد حديث عن حجمها أشرنا إليه سابقاً، والمهم في الأمر أنها سفينة كبيرة استوعبت نوحاً ومن معه، وكانت سبباً لنجاتهم من الطوفان الذي هلك به المكابرون.

المسألة الخامسة:

هل كان ابن نوح المذكور في القصة ابناً له حقيقة أم لا؟

الجواب:

1- ظاهر ما ورد في القرآن الكريم يفيد أنه ابنه حقيقةً، فهو من أهله، وإنما نفى الله سبحانه وتعالى عنه الأهلية في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46] لأن أهليته سقطت بكفره ومكابرته فهو عمل غير صالح، وهو ممن سبق عليه القول من الذين كفروا، وهو داخل في دعاء نوح على قومه:

﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: 26]. ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [نوح: 28].

كما أنه خارج من أهل نوح بسبب كفره فلم يدخل في دعاء نوح ـ عليه السلام ـ الآخر: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: 28]. فشرط الإيمان هنا، يخرج ابن نوح من دائرة أهله.

2- هنالك من قال إن هذا الابن لم يكن ابناً لنوح من صلبه وإنما هو ربيبه ابن زوجته من رجل آخر، فكان نوح عليه السلام يناديه "ابنه" لأنه تربَّى عنده ولا دليل على هذا القول.

3- هنالك من قال: إنه ابن نوح من حيث ولادته في داره، لكنه لأب آخر جاءت به زوجة نوح عليه السلام بطريقة غير مشروعة. ويستدلون على هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46].

وبقوله تعالى في الآية العاشرة من سورة التحريم:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10].

حيث ذكرت الآية هنا «الخيانة».

وقد أشار صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النَّجار إلى أنه لا يؤيِّد هذا القول، وإنما يؤيد أنه ابن نوح عليه السلام حقيقةً، ولكنَّه لايرى حقاً مع الذين رفضوا هذا القول جملةً وتفصيلاً لأن الخيانة الزوجية لا يمكن أن تقع من زوجات الأنبياء لما في ذلك من الهجنة على النبي.

النجَّار يقول: وقد فات هؤلاء أنَّ الكفر أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلاً للكفر، ومن أتى الذنب الأكبر هان عليه الأصغر.

وأقول:

لقد أخطأ النَّجار في هذا التعليل، فالكفر أكبر من الزنا، ولكن الزنا ذو مساس بعرض النبي، فهو لايصح أبداً من زوجته، وإنما كانت خيانتها لنوح أنها كانت تنال منه في غيابه وتقول: إنه مجنون كما ورد عن ابن عباس. كما أن خيانة زوجة لوط كانت متعلِّقة بأنها دلَّت الناس على ضيفه دون علمه.

إن الكفر عمل شخصي يتعلَّق بصاحبه، أما الزنا فعملٌ متجاوز للمرأة إلى زوجها وأبنائها وهذا ما لايليق بزوجة نبي حتى وإن كانت كافرة.

إن مكابرة ابن نوح عليه السلام، وكفره وعصيانه وإصراره على ذلك هي التي جعلته من المهلكين مع أنه ابن نوح عليه السلام.

المكابر الرابع
«الأحمر الأزرق القصير»

الحق دائماً أبلج، لا تتعب الأذهان في سبيل معرفته، ولا تعجز القلوب عن الإحساس به، اللهم إلاَّ إذا حال دون معرفته الحقِّ حائل، من كبرياء وغرور تنشأ عنهما مكابرة وإصرار على الباطل.

هنالك في جانب من جزيرة العرب كان يعيش قوم من العرب عيشة رغدٍ ونعمة، وقد شطحت بهم الأهواء حتى انحرفت بهم عن عبادة الله عز وجل.

وحينما بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نبيَّه صالحاً عليه السلام قابلوه بالجحود والنكران، والمكابرة والعناد، ولم يفلح في هدايتهم إلى طريق الصواب، ثم إنَّهم طلبوا منه تعجيزاً ومكابرةً أن يخرج الله لهم من صخرة صمَّاء عيَّنوها له ناقة عشراء تمخض، وكانت الصخرة التي أشاروا إليها منفردة في ناحية من بلادهم المعروفة باسم «الحجر» وكانوا يسمون تلك الصخرة «الكاتبة»، عند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمُنَنَّ به وليتّبُعنَّه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا ربّهُ عز وجل، فتحرَّكت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن «ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها» على الصفة التي طلبوها.

عند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» وآمن معه أتباعه، وأراد بقيَّة أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدَّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، ومعه «الحباب» صاحب أوثانهم.

وكان لجندع بن عمرو ابن عمٍّ له يُدعى «شهاب بن خليفة» وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم فنهاه ذلك الرَّهط (أي الجماعة) الذين لم يسلموا، فأطاعهم، واستسلم لهم.

أقامت الناقة ومعها فصيلها الذي وضعته بين أظهرهم مدّة من الزمن تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها في اليوم الذي تشرب هي فيه الماء، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم.

كانت الناقة ذات حجم كبير وخلق هائل ومنظر رائع، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها.

وكانت تسرح في بعض الأودية، ترد من فجٍّ، وتصدر من غيره ليسعها، لأنها كانت في يوم شربها تتضلَّع من الماء (أي: تشرب شرباً هائلاً).

هنا نتساءل: أليست هذه آية عظيمة؟ ألم يستجب الله سبحانه وتعالى لطلبهم الذي طلبوه ووعدوا أن يؤمنوا بالله إذا تحقَّق؟.

لنا أن نتخيَّل الصورة، حتى نستشعر عظمتها.

هذه صخرة صمَّاء كبيرة جامدة لا روح فيها ولا حركة، فهي أبعد ما تكون عن الحياة في نفسها، فكيف يخرج منها كائنٌ حيٌّ مهما كان صغيراً.

قومٌ عتاة مكابرون لم يستجيبوا لنبيهم، ولا يريدون أن يستجيبوا له، طلبوا طلباً يرون أنه مستحيل التنفيذ، وإنما طلبوه تعجيزاً.

هنا في هذه اللحظة، بعد أن طلبوا طلبهم الغريب، تنفرج أمامهم الصخرة الصمَّاء لتخرج منها ناقة عظيمة حامل.

هنا تحققت المعجزة بإرادة الله، فما الذي منع القوم من التصديق؟

المكابرة، لقد أقامت حاجزاً كبيراً بين عقولهم وبين التفكير السليم، وبين قلوبهم وبين الإيمان والتصديق.

فريقٌ منهم انكسر حاجز المكابرة في نفوسهم بحدوث المعجزة فأعلنوا إيمانهم، أما الآخرون فقد أصرُّوا على كفرهم، وكابروا، وبذلوا جهوداً كبيرة لصرف من أسلم عن إسلامه، ونجحوا مع بعضهم.

أريتم كيف تفعل المكابرة، وماذا يصنع الغرور؟!

هل وقف القوم عند هذا الحد؟!

كلاَّ....

فقد ضاقوا بالناقة ذرعاً، مع أنها كانت تسقيهم اللبن في اليوم الذي تشرب فيه الماء، فهم يشربون الماء يوماً، ويشربون اللبن يوماً.

لقد سعى المكابرون بين قومهم في شأن الناقة، وأقنعوهم بأنها تتسلَّط على مراعيهم فتخاف منها مواشيهم، وتتسلط على مائهم فتحرمهم منه يوماً.

المكابرة هنا تقف حاجزاً دون الاتعاظ بمعجزة الناقة، ونحن نعلم أن المكابر مغلق القلب أمام الحق.

ماذا جرى بعد ذلك؟!

بعد أن آنسوا من قومهم شعوراً بالتضايق من الناقة عزموا على التخلُّص منها.

ويلهم: ألم يطلبوها..؟ ألم يحدِّدوا أوصافها حينما طلبوها..؟ ألم يعاهدوا نبيَّهم صالحاً عليه السلام، على السمع والطاعة إذا أجيب طلبهم؟

بلى، كل ذلك كان، ولكنَّ المكابرة تقف حاجزاً دون معرفة الحق.

عزموا على قتل الناقة.

كيف؟

كانت هنالك عجوز شمطاء يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنَّى «أم غنم» وكانت كافرة شديدة العداوة لنبي الله صالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحدَ رؤساء ثمود.

وكان معها امرأة أخرى يقال لها: «صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت زوجة رجل مسلم من ثمود، ففارقته.

اجتمعت المرأتان، واتفقتا على دعم أولئك الذين يريدون قتل الناقة.

دعت «صدوف» رجلاً اسمه «الحباب، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له "مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ما طلبت.

أما العجوز «عنيزة» فقد دعت رجلاً اسمه «قدار بن سالف بن جندع» وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زِنْيَة، أي أنه من الزِّنا، وليس من أبيه الذي ينسب إليه.

وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، هنا اشتعل الشر في قلبي الرجلين «مصدع، وقدار».

وهنا بدأت المأساة.

انطلق المكابر الكبير قدار بن سالف يرافقه صاحبه إلى بعض غواة قوم ثمود، يستفزونهم للمشاركة في هذه الجريمة فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: 48].

وكانوا رؤوساً في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة، فطاوعتهم على ما عزموا عليه.

هنا انطلقوا فرحين، يسبقهم قائدهم المكابر "قدار" الذي وصل إلى المكان المحدَّد قبلهم وفي نفسه أن يفوز بهذا العمل الخطير، حيث كمن للناقة في أصل صخرة على طريقها وكمن لها «مصدع» في مكان آخر، فمرَّت الناقة أوَّل ما مرَّت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به

عضلة ساقها، وكانت العجوز «عنيزة» تراقب الحدث، فأمرت أجمل بناتها أن تكشف وجهها ورأسها أمام «قدار» الذي وعدته بتزويجه إحدى بناتها.

كان قدار جاهزاً نفساً وعقلاً لقتل الناقة، فانطلق إليها بسيفه فشدَّ عليها فكشف عرقوبها (أي: قطعه) فخرَّت ساقطة على الأرض، ورغت رغاةً واحدة تحذِّر بها فصيلها الذي كان يسير وراءها، وكان «قدار» يريد قتله مع أمه.

لقد أجهز على الناقة وطعنها في لبَّتِها فنحرها.

أمَّا فصيلها فقد ولَّى هارباً وهم يركضون وراءه، فصعد جبلاً منيعاً ودخل في صخرة فغاب فيها.

كان قدار بن سالف يشعر بإنجازه الكبير، لم يكن يستطيع أن يرى بعين بصيرته خطورة ما فعل، وأنَّى لعين بصيرته أن ترى وهو المكابر العنيد.

لمَّا فرغوا من قتل الناقة، بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65].

لماذا بكى صالح، وقدار وجماعته يضحكون؟

لأنه يرى الحق حقاً، ويرى الباطل باطلاً، ويعلم النهاية السيئة التي سينتهي إليها قوم ثمود كلهم.

أما قدار وجماعته، فهم في غمرة هواهم، وفي خندق مكابرتهم لايرون وجه الحق، ولا يسمعون صوته.

هل وقف المكابرون عند هذا الحدِّ؟

كلاَّ...

فقد اتفقوا على قتل صالح عليه السلام، يقدمهم الذي عقر الناقة وقالوا: إن كان صالح صادقاً فيما أنذرنا به من العذاب عجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته.

حينما خيَّم الليل، ونشر ظلماءه في كل مكان، وحال بين الأعين وبين ما تراه، انطلق قدار ومعه جماعته إلى بيت صالح ليقتلوه، ولكنَّهم كانوا في غفلة مكابرتهم ناسين أنه نبيُّ الله عليه السلام، وأنَّ الله مطلع على ما عزموا عليه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: 50].

كانوا منطلقين إلى بيت صالح، ولكنَّ قدرة الله سبحانه وتعالى أسرع منهم، فقد أرسل عليهم حجارة فرضختهم وأماتتهم في مكانهم، فكانوا سابقين لقومهم في الهلاك.

هكذا غلَّفت المكابرة قلوبهم، وغلَّفت بصائرهم حتى وصلوا إلى هذه النهاية.

أين قدار بن سالف؟ وأين تلك العجوز الكافرة «عنيزة»؟

وأين ابنتها الجميلة؟ لقد تلاشوا وضاعوا في زحام المكابرة والضلال.

أرأيتم كيف تصنع المكابرة بالإنسان والعياذ بالله؟

1- حينما خرجت الناقة من الصخرة حالت المكابرة بين الكافرين وبين الخضوع لرب العالمين.

2- وحينما بثَّ صالح عليه السلام دعوته الصادقة حجزت المكابرة بين قدار بن سالف وجماعته وبين رؤية أضواء تلك الدعوةِ إلى دين الله.

3- وحينما ارتكب الرجل جريمة نحر الناقة رأى بكاء النبي صالح عليه السلام، فما زاده ذلك إلا عناداً، ولولا المكابرة البغيضة، لاعتذر وتاب، ولربما تاب الله عليه وأنقذ قومه ونفسه من الهلاك.

4- وحينما عزم مع جماعته على قتل نبيِّ الله صالح لم يكن ليتذكر معجزة خروج الناقة من الصخرة، فهي كافية للدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، ولولا المكابرة لأدرك ومن معه أنَّ الله سبحانه وتعالى سيحمي نبيَّه منهم.

انتهى كل شيء، ذهبت البيوت الفارهة، والنساء الجميلات والمكانة والشرف الدنيوي.

نسفت المكابرة كل شيء.

كان نصيب «قدار بن سالف» حجراً صلداً رضخ الله به رأسه فمات، مات كأن لم يكن موجوداً.

وكان ورهطه سبباً في هلاك قومهم أجمعين، إلا من كان مع صالح من المؤمنين.

ثلاثة أيام رأوا فيها عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى.

اليوم الأول بعد قتل الناقة هو يوم الخميس، أصبح القوم فيه ووجوههم مصفرَّة ويوم الجمعة أصبحوا ووجوههم محمرَّة، ويوم السبت أصبحوا ووجوههم مسودَّة، وفي صبيحة يوم الأحد جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78].

لم ينج منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى.

قال ابن كثير في تفسيره:

قالوا: إنَّ جارية من قوم ثمود كانت مقعدة، يقال لها: "الذريعة" وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت هلاك القوم انطلقت رجلاها ، فقامت تسعى حتى وصلت إلى حيٍّ من الأحياء القريبة فأخبرتهم بما رأت وما نزل بقومها ثم استسقتهم من الماء.

فلما شربت «ماتت».

حتى أبو رغال رجل من ثمود لحق بقومه، فقد كان في الحرم حينما نزل بقومه مانزل فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصابهم!.

يالها من نهاية مؤلمة.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه :

«ألا أحدثك بأشقى الناس»؟

قال: بلى.

قال: رجلان...

أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة.

والذي يضربك يا عليُّ على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتلَّ منه هذه ـ يعني لحيته ـ.

وتؤكد الروايات أن الشقيَّ الثاني ـ عبد الرحمن بن ملجم ـ الذي قتل علياً رضي الله عنه قد ضرب علياً على قرنه في الموضع الذي أشار إليه الرسول ﷺ.

اللهم إنَّا نسألك السلامة من هذا الشقاء، ونرجو رحمتك، ونطمع في مغفرتك.

هكذا كانت نهاية «الأحمر الأزرق القصير»

«أحيمر ثمود»

«قدار بن سالف»

قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: 12- 15].

المكابر الخامس
«لئن لم تنته لأرجمنَّك»

رجل تظهر عليه صفات الصدق والإخلاص، وينطق وجهه بالسماحة والحلم وحسن الخلق.

رجل مؤمن بالله عز وجلَّ، رأى علامات الحق ظاهرةً في كل ما يدور حوله في هذا الكون الفسيح.

رجل أطلعه الله على بعض أسرار هذه الحياة. وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين.

كل الكتب التي تتحدث عنه تؤكد أنه رجل كريم ذو صفات خاصة ترفع بين الناس مقامه، وتحبِّب إلى من يستمعون إليه كلامه، ويمنحه كلٌّ من رأى وجهه المشرق تقديره واحترامه.

حينما ينظر إليه ذو القلب السليم، وذو النفس المشرقة، وذو الحسِّ الصادق، يميل إليه قلبه، ولا يملك إلا أن يحبَّه، وأن يصدِّق حديثه، وأن يجعله قدوة صالحة يقتدى بها.

إنها صفات ممتازة يتوق إليها كل إنسان سويٍّ في هذه الحياة.

رجل بعثه الله برسالته، وأوحى إليه ما أوحى من أمور الدين الإسلامي الذي تصلح به حياة الناس وآخرتهم، اختاره الله لرسالته، وكان صدِّيقاً نبيًّا، صادقاً مخلصاً.

جـرت له مع النـاس مـواقف ومـواقف، واعـتـرض حـيـاته مـا اعترضها من الأحداث الجسام، والمشكلات العظام، ولكنه من أولي العزم من الرسل.

ما رأيكم في رجل هذه صفاته؟

ألا يستحق التقدير؟ أليس جديراً بالتصديق؟

أليس مؤهلاً لقيادة الناس إلى النجاة؟

ماذا سيفعل أحدنا لو لقي رجلاً بهذه الصفات؟

كأني بنا جميعاً نقول: نصدِّقه، ونتبعه، ونحبُّه ونقدِّره.

ماذا لو كان أحدنا أباً لهذا الرجل؟

كأني بكم تقولون:

للأب أن يرفع رأسه بين الناس حينما يكون له ولد بهذه الصفات، له أن يفخر، وله أن يقدِّر وله أن يعيش حياته سعيداً راضياً مستبشراً لأنه أب لرجل عظيم.

صدقتم، هذا هو الحق.

ولكن هذا الرجل الذي ذكرنا من فضله ما ذكرنا عانى أشد المعاناة وأقساها من جحود أبيه وعناده ومكابرته وعدائه.

كان أبوه عدوَّه الأوَّل الذي وقف في وجهه بقسوة وكذَّب ما جاء به بمكابرة آذت نفس هذا الرجل الكريم، وملأت قلبه حسرة وألما.

لقد سجَّل القرآن الكريم لنا موقف هذا الأب الذي كابر وعاند في أكثر من سورة.

إن ذلك الرجل الكريم هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم الذي حاول بكل ما أوتي من حبّ لأبيه، وصدق في عاطفته، وإخلاص في دعوته، أن يسعد أباه بانتمائه إلى الإسلام، ولكنَّه لم يفلح فوقف حزيناً يتأمَّل حالة هذا الأب المكابر الذي قال لابنه البارّ الصادق الكريم: «كلا».

أه من «كلا» هذه التي تنطلق سهماً قاتلاً إلى قلب خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ما اسم أي إبراهيم؟

قيل هو: «آزر» كما ورد في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74].

فهل اسمه آزر؟

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنَّ أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح، وقال في قوله تعالى: ـ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ـ يعني بآزر الصنم، أما أبو إبراهيم فاسمه تارح، وامُّه اسمها مثاني، وامرأته اسمها «سارَّة» وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم عليه السلام.

وقال بعض المفسرين، إنَّ آزر اسم صنم وليس اسماً لأبي إبراهيم، وإنما ذكره لأنه قد غلب عليه لأنه كان يخدمه.

وقيل: إن معنى آزر هو: معوجّ، قاله إبراهيم وصفاً لحالة أبيه.

وأنا أميل إلى ما قاله صاحب كتاب قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار، من أنَّ إبراهيم كان أحلم، وأرفع من أن يقول لأبيه كلمة نابية، فهو يحاول أن يدخله في الإسلام، وحينما أبى وعاند استغفر له وهو على كفره.

وإن كان ابن جرير الطبري يرجِّح أن يكون آزر اسماً ثانياً لأبي إبراهيم، أو يكون أحدهما لقباً له.

ولن نسترسل في هذا الطريق، لأن المهمَّ في الأمر هو الحديث عن مكابرة «تارح» وعناده لولده إبراهيم.

لقد كان الحقُّ واضحاً أمام الرجل، وهو أعرف الناس بابنه وأقرب الناس إليه، ولكنَّ المكابرة حجزت بينه وبين رؤية الحق والإيمان به.

وإني لأعرف فيمن عرفت رجلاً ذا صلاح وعلم ودعوة مقبولة عند الناس، كان يعاني من جحود أبيه ومحاربته له ما لم يكن ليخطر لي على بال لولا أنني رأيته.

وكنت أرى من حسرة الابن الداعية، وحزنه الشديد ما يجعلني شديد الإشفاق عليه.

وإن هذه الصورة الواقعية لتقرِّب لي صورة أبي إبراهيم عليه السلام الذي أنكر دعوته ولم يؤمن به، وتشعرني بشدة الألم الذي كان يملأ قلب خليل الله عليه السلام.

إن مما ضاعف المأساة في هذه الحالة هو أنَّ والد إبراهيم كان عابداً للأصنام، متخذاً لها آلهة من دون الله، أي أنه «كافر» مكابر، وهذه الصورة شديدة الإيلام لنفس الإبن البارِّ الحريص على نجاة أبيه.

إنه الضَّلال المبين الذي كان عليه أبو إبراهيم وقومه، وهو ضلال سابق لدعوة إبراهيم، فلما جاء إبراهيم عليه السلام بما جاء به، استمرَّ ضلال أهل الضلال.

وهنا ـ في هذه الحالة ـ تبرز المكابرة التي تجمِّد الأحاسيس، إنَّ إبراهيم عليه السلام قد أصبح صدِّيقاً نبيًّا، وصار لديه من العلم والمعرفة التي منَّ الله بها عليه ما يجعله قادراً على أن يقدِّم الدواء لداء الجهل والضلال.

كان أبوه هدفاً أوَّل له، لأنه أقربُ الناس إلى قلبه، ولأن حقَّه على ابنه أكبر وآكد، ولأن الأقربين أولى بالمعروف.

ولربما كان الأمل كبيراً في نفس إبراهيم الخليل عليه السلام قبل أن يصدمه أبوه بمكابرته وعناده، ولهذا وجَّه إليه خطاباً مباشراً مشحوناً بالمودَّة والحرص على الهداية، مقدَّماً بصيغة الاستفهام المشوب بالعتاب والأمل:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 42-45].

إن في تكرار هذا النداء الشجيِّ المغموس في نبع العاطفة الجيَّاشة «يا أبت» ما يؤكد لنا عمق المشاعر التي كان ينطلق منها إبراهيم عليه السلام في خطاب أبيه.

«يا أبت» مفتاح رائع من مفاتيح العاطفة الأبويَّة التي تستقر في قلب «تارح» أبي إبراهيم، ولكنَّ المشكلة تكمن في «المكابرة» التي لا تسمح لهذا المفتاح ولا لغيره من المفاتيح أن يقوم بدوره في فتح الأبواب المغلقة.

إنها النبوة في أسمى مراتبها، وإنَّه البرُّ بالأب في أجمل صوره، وإنه الإحساس بالمسؤولية في أعلى درجاته.

● ***تساؤل شجيٌّ حزين:***

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] إنه لشيء محزن أن يقع الإنسان العاقل في هذا المستنقع الآسنِ من الكفر بالله العلي القدير، وعبادة جمادات لا تعي شيئاً.

تساؤل قادر على هزِّ القلب من داخله، لو سلم من حاجز المكابرة الغليظ.

- **خبرٌ مؤكد صحيح تبنى عليه نتيجة مهمة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43].

النبوة حقيقة، والرسالة واقع ثابت، وفي النبوة والرسالة من العلم ما لايملكه إلا النبيُّ المرسل، ومادام الأمر كذلك فإن الهداية إلى الصراط السويِّ هي النتيجة.

ياالضياع المكابر وياالسوء خاتمته.

- **نهيٌ عن شر متحقق يهلك الإنسان:**

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44].

الشيطان هو الذي يقود المكابرين والمعاندين، وهو الذي يخرِّجهم في مدرسة الذنوب الشيطانية التي افتتحها منذ أبى واستكبر فلم يطع أمر ربِّه، ولم يسجد لآدم عليه السلام ولذلك فإن من يعبد غير الله إنما يطيع الشيطان، فهو يعبد الشيطان الرجيم.

مدرسة خبيثة ممتدَّة عبر أزمان طويلة.

ولكن القلب المكابر لا يفقه.

- **خوف من النهاية المؤسفة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: 45].

إن الأب المكابر قد أصبح مغلق التفكير في هذه الحالة، فلا فائدة من النداء يا أبا الأنبياء.

بعد كلِّ هذه النداءات المضيئة بالحب والصدقِ.

كان الجواب صدمةً للابن الحريص على نجاة أبيه:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46].

كأنه لم يسمع من ابنه كلمةً واحدة، بل هو لم يسمع ـ فعلاً ـ وأنَّى له أن يسمع وفي أذنيه وقر، وفي قلبه حجاب كثيف من مكابرة ومعاندة..؟

لقد حاول إبراهيم عليه السلام أن يحاصر أباه من كل نواحيه، من القلب والعقل والنفس، فعاتبه، وأخبره ونهاه وعبر له عن شعوره الصادق نحوه حينما أعلن له أنه يخاف عليه من عذاب أليم.

كل ذلك أصبح هباءً أمام المكابرة التي أمسكت بتلابيب «تارح» عقلاً وقلباً ونفساً.

مع كل هذا العناد، وبعد كل هذه المكابرة، وقف إبراهيم عليه السلام شامخاً بصبره، ورفقه وعطفه وشفقته وحبِّه للخير.

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: 47-48].

﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

ماأجملها من كلمة تدل على قلب رحيم.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: 47].

ما أعظمها من جملة تعبر عن كرم الطبع وسلامة الصدر والحرص على الخير.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: 48].

ياله من بيان واضح يدل على البراءة من الكفر وأهله مهما كانت أوصر القربى.

﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

لولا المكابرة والعناد لكان لهذه الكلمة بعد ذلك الحوار الطويل أثرها الكبير في نفس «تارح» ولأحدنا أن يتخيل نفسه في ذلك الموقف، يدور حوار شديد بينه وبين آخر، ثم يسمع من الآخر كلمة «سلام عليك».

ماذا سيصنع؟

لاشك أنَّه سيلين، ويقدِّر صاحبه أعظم تقدير.

﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: 46].

هذه الكلمة التي قالها أبو إبراهيم عليه السلام له بعد الحوار الذي دار بينهما تؤكد مدى المكابرة عنده التي جعلته يقول لفلذة كبده هذه الكلمة الجامدة.

هل يعني بذلك الرجم بالحجارة؟

أم الرجم بالكلمات سبّاً وشتماً؟

لا فرق بينهما في ميزان الحكم على موقف الرجل، فالمهم هنا أنها كلمة نابية تدل على شخصية مكابرة.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ [مريم: 47].

أي سأسأل الله تعالى أن يهديك، ويغفر ذنبك، فلن أتوقف عن الاستغفار لك لعل ذلك ينجيك من العذاب.

وروى المفسرون أن إبراهيم ظلَّ يستغفر لأبيه المكابر مدَّة طويلة.

حتى بعد أن هاجر إلى الشام.

وبعد أن بنى المسجد الحرام.

وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وقد بقيت هذه سنَّة اتبعها المسلمون في بدايات الإسلام حية استغفروا لقراباتهم وأهلهم من المشركين، وذلك اقتداءً بإبراهيم عليه السلام، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: 4].

يوضح ابن كثير في تفسيره معنى هذه الآية قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى وجَّه المسلمين إلى الاقتداء بإبراهيم في براءته من الكفر وأهله. واستثنى من ذلك استغفاره لأبيه في قوله: إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك: أي لا تتأسوا وتقتدوا به في هذا.

بيَّن تعالى أنَّ إبراهيم أقلع عن استغفاره لأبيه في قوله:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113-114].

وفي هذا دليل قاطع على سموٍّ روح إبراهيم عليه السلام، وارتفاعه إلى درجات العطف والرحمة والمودّة العاليات، حيث ظلَّ يستغفر لأبيه، حتى نهاه الله عن ذلك فانتهى.

أما «تارح» فقد كابر وعاند حتى أحرق جميع أوراق نجاته في الدنيا والآخرة، وأغلق بمكابرته على ابنه المحبِّ لأبيه المشفق عليه كلَّ أبواب الأمل في نجاة والده.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم»:

ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه:

فاليوم لا أعصيك

فيقول إبراهيم:

يا رب، إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله:

إني حرَّمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال:

يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذبح متلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

قال ابن كثير بعد رواية هذه الحديث:

وقد رواه البخاري في قصة إبراهيم منفرداً.

صورة أخرى من صور المكابرين القاتمة ظهر أمامنا صاحبها في أسوأ حال، بعد أن أضاع كلَّ الفرص التي كانت متاحةً أمامه للنجاة.

اللهم إنا نعوذ بك من خاتمة السوء

يا رب العالمين

المكابر السَّادس
«أنا أحيي وأميت»

مرَّت بإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف متعدَّدة، ظهرت فيها حكمته وصبره، ورؤيته الواضحة، كما تجلَّت فيها معاناته مع المكابرين الذين يحاربون الحقَّ، ويصدُّون أصحابه، ويقفون في وجه الخير والإصلاح.

ولقد كان أشد المواقف ألماً في نفسه موقف أبيه منه كما مرَّ بنا في الصفحات السابقة، لأنه مرتبط بمشاعر الأبوَّة والبنوة، والعواطف الجيَّاشة عند الابن نحو أبيه.

ومن المواقف العصيبة التي مرَّت بإبراهيم عليه السلام، ذلك الموقف مع المكابر الكبير الملك «نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح»، وهو ملك ذو نفوذ واسع لقد ملك الدنيا بأسرها، فكان سلطانه ممتداً إلى كلِّ من كان على وجه الأرض من البشر، وهو أحد الكافرَيْنِ اللَّذين ملكا الدنيا بأسرها: «نمروذ، وبختنصّر».

أما المؤمنان اللذان ملكاها أيضاً، فهما: «سليمان بن داوود عليهما السلام، وذو القرنين ـ رحمه الله ـ».

ولكن شتَّان بين الجانبين، من حيث إشاعة الخير، والحق والعدل بين الناس.

لقد أعلن «نمروذ» إنكاره الصارخ أن يكون هناك إله غيره وبلغ من التجبر والتسلُّط مبلغاً كبيراً، وصارت القوة المادية التي يملكها شؤماً عليه، لأنها ألقت به في خندق الجحود، ولعل مما زاد من تجبُّره طول مدة ملكه فظنَّ أنه الإله الذي لا يفنى، حيث تذكر بعض الروايات أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه الكبير العريض.

تطاول النمروذ وادَّعى أنه مقتدر على كلِّ شيء، وكان له من ملكه وخدمه وحشمه، وجيشه العملاق ما يدفعه إلى ذلك التمرُّد وهذا الجبروت.

المكابرة والاغترار، هي، هي، كما رأيناها عند إبليس الذي غوى، نراها عند «نمروذ» الذي أعماه الهوى.

كيف التقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهذا الملك المتغطرس المتعالي «نمروذ»؟

أشار ابن كثير في تفسيره نقلاً عن السُّدّي: أنَّ المناظرة التي جرت بين إبراهيم والنمروذ كانت بعد خروج إبراهيم من النار التي أرادوا إحراقه فيها فجعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم، ولم يكن قد اجتمع بهذا الملك قبل هذه الحادثة، ويبدو أن المعجزة الإلهية التي أدهشت الجميع حين شاهدوا النار الملتهبة تصبح برداً وسلاماً على أبي الأنبياء عليه السلام.

يبدو أن هذه المعجزة قد دفعت الملك إلى طلب اللقاء بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما التقى به..

«كانت المناظرة بينهما».

وفيها أقيمت الحجة على «نمروذ» فلما كابر أهلكه الله كما سنعرف بعد قليل.

وهنالك رواية أخرى عن زيد بن أسلم تقول:

إنَّ النمروذ كان عنده طعام يحضره عامة الناس، وكان الناس يفدون إليه طلباً للميرة، ورغبة في التزود لأهلهم، فوفد إبراهيم في جملة من وفد من الناس طلباً للميرة، فلما التقى بالملك حدثت بينهما المناظرة، ففضب الملك، ومنع أن يعطى إبراهيم ـ عليه السلام ـ طعاماً كما أعطي الناس.

فرجع ـ عليه السلام ـ وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله كره أن يعود إليهم خالي الوفاض من الطعام..!

فماذا فعل هنا؟؟

اتّجه إلى كثيب من الرَّمل فملأ منه عدليه، ليشغل بهما أهله أوَّل ما يراهم، فلما وصل إلى أهله، وضع رحاله، وجاء إلى مكان من البيت فاتّكأ ونام.

لقد كان متعباً من السفر، وحزيناً لعدم وجود طعام معه مع حاجة أهله إليه، ولربما كان يشعر بالخجل من أهله الذين سيفاجئهم وجود الرمل بدل الطعام ، فقامت امرأته ـ سارة ـ إلى العِدْلين اللذين ملأهما رملاً، فكشفت عنهما فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، وميرةً حسنة. فعملت منه طعاماً، وانتظرت زوجها إبراهيم حتى يقوم من النوم لتقدِّم له الطعام.

فلما استيقظ من نومه وجد الطعام الذي جهَّزته له زوجته سارَّة فقال لها:

أنَّى لكم هذا؟

قالت: أنت الذي جئت به.

هنا، صمت إبراهيم، ووجَّه شكره إلى ربه عز وجل، وقد أيقن أنه رزقٌ رزقهموه الله عز وجل، وأن الله قد كافأ إبراهيم عليه السلام على موقفه من الملك المكابر بأن منحه من الطعام ـ بقدرته ـ أفضل مما عاد به الآخرون من طعام الملك.

ونحن لا نتوقف عند الطريقة التي لقي بها ابراهيم النمرود طويلاً، لأن اللقاء قد حدث ـ بلا شك ـ وجرى فيه حوار واضح ـ بلا شك ـ وقد أكَّد لنا القرآن الكريم ذلك في سورة البقرة.

كيف كانت المناظرة؟

هنا نبي مرسل من الله عز وجل، يعرف ربَّه، ويعلم أنَّ كل ما في الوجود من خلقه وتحت أمره ـ سبحانه وتعالى ـ وهنالك ملك مكابر متجبِّر أعماه غروره، وأطغاه سلطانه فهو يرى خلاف ما يراه إبراهيم.

إنهما رؤيتان متصادمتان متناقضتان.

وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن تكون الحجج التي يطرحها إبراهيم عليه السلام قويةً واضحة لعلَّها تمزِّق حجاب المكابرة الذي أعمى النمرود.

تشـيـر الروايات في إطار مـدلول الآيات القـرآنيـة إلى أن "نمرود" سـأل إبراهيم عليه السـلام عن ربه، وطلب منه دليـلاً على وجود الرّبِّ الذي يدعو إليه.

كـان الدليل الأوضح الأقرب إلى الذهن هو دليل الإحـيـاء والإمـاتة الذي يحسم القضية، ويؤكد حقيقة الرب سبحانه وتعالى التي نسيها أو تناساها الملك ا لمكابر.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة الموت بصفتها دليـلاً قاطعاً على عـجـز البشـر وضـعفـهم أمـام خـالق الخلق، ومالك الملك، مقـّدر الحياة والموت.

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: 83-87].

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

جواب واضح، يفهمه العاقل الذي لا تحجب عقله حجب المكابرة، والغرور، وهوى النفس.

أما جواب الواهم فهو الجواب المضحك الذي يدلُّ على أدنى دركات التفكير المغلق التي وصل إليها.

قال النمروذ: «أنا أحيي وأميت».

هنا يحق لكل عاقل أن يضحك ضحكاً كالبكاء.

كيف تفعل ذلك أيها الملك الأعجوبة؟

تقول الروايات:

إنه أمر بإحضار رجلين قد صدر عليهما الحكم بالقتل، فقال: عفوت عن هذا، وأمرت بقتل هذا. فأنا أحييت أحدهما وأمتُّ الآخَرَ..

أرأيتم، كيف يكون المنطق الأعوج عند المكابر؟

وكيف يصبح مثاراً لسخرية العقلاء مع أنه يظن أنه قد جاء بما لم يأت به غيره من البشر.

ربما كانت ابتسامات المنافقين حوله من عوامل زيادة مكابرته ووهمه، وربما أنه بفعله هذا أمامَ إبراهيم ظن أنه قد أفحمه وأسكته.

لقد شعر إبراهيم أنه أمام مكابر ضيِّق الأفق، ولو لم يكن كذلك لما قابل تلك الحقيقة الكبرى «الموت» بهذه الفجاجة التي تكشف شخصية جوفاء.

هنا لا بد من إيقافه عند حدِّه بدليل آخر لا يمكن دفعه بمثل هذا التلفيق الذي صنعه الملك نمروذ في مواجهة الدليل الأول:

قال إبراهيم في مواجهة هذه المكابرة: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة: 258].

هيا يا نمروذ وجِّه إشارة من يدك الضعيفة إلى الشمس لتفعل ذلك، أو أرسل فرقة من جيشك لتأخذ بخيط من خيوط شعاع الشمس وتجرها إلى المغرب لتشرق من هناك، ألست تدعي أنك تملك الإحياء. والإماتة؟ وأنك تتصرف في الوجود؟.

إذن، مادمت كذلك فلن يعجزك أن تفعل بالشمس ما طلب منك نبيُّ الله إبراهيم.

هنا لم تر عيون الحاضرين في ذلك المجلس إلا رأس هذا المكابر المنكَّس، ووجهه الواجم، والبهتة التي جعلته عاجزاً عن الكلام.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

لقد قامت الحجة الدامغة التي لا تتيح له أن يخادع أبداً .

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ماذا جرى بعد هذا؟

المكابرة لا تترك صاحبها حتى تهلكه، لم يصدق ولم يؤمن بالحق، بل أمر بإخراج إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمر بألا يحمل من الطعام شيئاً.

يالها من نفوس تهبط بها مكابرتها إلى هذا الحضيض!.

ومن يدري؟ ربما كان نمروذ يريد أن يأمر بقتل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكنَّ حادثة النار التي صارت برداً وسلاماً على إبراهيم جعلته على يقين من عدم قدرته على تنفيذ مثل هذا الأمر.

المكابرة حاجز خطير، أوصلت هذا الملك إلى أسوأ النهايات.

كيف ذلك؟

يروي ابن كثير في تفسيره عن زيد بن أسلم قوله:

بعث الله سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك ـ إلى الملك نمرود ملكاً من الملائكة يأمره بالإيمان بالله.

فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه الملك مرةً ثانية يدعوه إلى الإيمان بالله فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه مرة ثالثة فدعاه فأبى أشدَّ الإباء.

فماذا كان الجزاء؟

قال له ذلك الملك من الملائكة: «اجمع جموعك، وأجمع جموعي».

وهنا يظهر مدى الارتكاس في ذهن وعقل النمروذ. لو كان واعياً رشيداً لعلم أن معنى هذا الكلام هو هلاكُهُ بلا شك.

ولكنَّه ذهب يعد جيشه للمعركة، أيُّ معركة يا ترى؟

معركة الغفلة التي ستريه نهايته المؤسفة.

جمع جيشه وجنوده وقت طلوع الفجر.

أين الجيش المقابل؟

أرسل الله عليهم أرتالاً من البعوض سدَّت عليهم الأفق فلم يروْا عين الشمس.

هيَّا يا نمرود، سلُّوا سيوفكم، وأشرعوا رماحكم. حتى تهزموا جيش البعوض.

إنَّ إرسال الله سبحانه وتعالى لهذا الجيش الضعيف المحتقر مناسب لمكابرة ذلك الملك المكابر.

تقول الرواية:

أكلت البعوض لحومهم، ومصَّت دماءهم وتركتهم عظاماً بادية، هياكل عظمية مخيفة.

أين الملك المغرور المكابر الذي ادَّعى أنه قادر على الإحياء والإماتة؟

تقول الرواية:

دخلت واحدة من تلك الآلاف المؤلفة من البعوض، في منخري الملك، نعم، بعوضة واحدة في فتحه أنفه لأنه كان يشمخ به على ربه ظلماً وعدواناً، ولأن الأنف من أشرف ما يملكه الإنسان من الأعضاء لأنه في مقدمة وجهه.

بعوضة واحدة ظلَّت في أنفه زمناً، زيادة في التعذيب والإهانة له، حتى كان يضرب رأسه بالمرازب طيلة بقائها في أنفه، لأنها لم تمت، بل كانت تتحرك داخل أنفه فتصيبه بالجنون.

وماذا بعد؟

هلك النمروذ المكابر، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى بخبره للعظة والاعتبار.

بعوضة واحدة تقتل الذي قال: «أنا أحيي وأميت».

اللهم اشرح صدورنا للحق حتى لا يخدعنا الباطل آمين.

المكابر السَّابع
«أنا ربكم الأعلى»

لعلَّنا لو أردنا تصنيف خريجي المدرسة الشيطانية حسب اجتهادهم، وتحصيلهم، وتفوُّقهم في المكابرة والجحود، لوجدنا هذا المكابر هو المتفوِّق الأوَّل فيها وهو الجدير بتاج النجاح الأكبر الذي يخصصه إبليس اللَّعين لأتباعه وتلاميذه ومريديه.

مكابر أظهر بدون وجل جحده للخالق الرازق تبارك وتعالى، وأنكر وجود إلهٍ غيره «ما علمت لكم من إله غيري» وشطح في مكابرته حتى قال:

«أنا ربكم الأعلى» وقال متجرِّداً من الحكمة والعقل:

«وما رب العالمين؟»، وحينما واجهه النبي المرسل عليه السلام بالحجة بعد الحجة، والدليل بعد الدليل قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، وقال حين عجز عن الردِّ، وَجُوبِهَ بالحق المسكت له ولأمثاله: «لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين».

أرأيتم كيف يصبح المكابر كالحجر الأصمِّ الأبكم لا يفهم معاني الكلام الصحيح الصريح، ولا يستوعب دلالات الحجج الدامغات.

أبواب مسدودة أمام كلمة الحق، أقفلت بقفل المكابرة الذي لا مفتاح له إلاّ الرجوع إلى الحق، وأين هذا المفتاح من أهل المكابرة والغرور والكفر والضلال.

إنه المكابر الأضخم في باب المكابرة: «فرعون» الذي غرَّه ملكه وقوَّته، وخضوع الناس له وطول مدَّة ملكه، وتلاعب بعقله وقلبه أستاذه الأكبر في الضلال «الشيطان الرجيم»، فرمى به في حجج المكابرة والتكذيب، وأغرقه في أوحال الكفر والعصيان، ونفخه بالغرور القاتل حتى قال الكلمة التي يتحقق بها حلم إبليس الأعظم «أنا ربكم الأعلى».

لكأنني بمؤسس مدرسة المكابرة والجحود، ومنشئ مركز التمرد والعصيان «إبليس لعنه الله» يتعالى إحساساً بالانتصار على هذا الملك المغرور بضعفه، الضعيف بغروره، فرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى»، يا لها من كلمة، ما أظنُّ إبليس إلا قد أقام من أجلها مهرجاناً شيطانياً ضخماً حضرهُ ملايين الشياطين الذين يكيدون لبني آدم ليل نهار.

لقد رأى فرعون دلائل وعجائب كانت جديرة بإعادته إلى الصواب لو أنه سلم من داء المكابرة والاغترار.

إن مجيء ذلك التابوت على سطح البحر تسوقه الأمواج وفي داخله ذلك الطفل الرَّضيع، يعد رسالة واضحة، فيها إعجاز واضح لو كان عقل فرعون سليماً من مكابرته وغروره وعناده.

وإنَّ نشأة ذلك الرضيع «موسى بن عمران» عليه السلام في بيت عدوه وعدو قومه، وفي العام الذي أمر فيه فرعون بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، لدليل على أن هنالك أسراراً إلهيَّة لا يعلمها إلا الخالق القادر الذي كفر به فرعون، وجحده، وادَّعى أنه هو الربُّ دونه.

ثم ما جرى من تسلسل الأحداث التي برزت فيها شخصية موسى وقوة بدنه، وقتله دون قصد لرجل من قوم فرعون حينما وكزه بإصبعه فمات دفاعاً عن الاسرائيلي ثم هروبه إلى مدين، ثم عودته رسولاً إلى فرعون بعد ذلك لسنوات إن ذلك كلَّه لرسائل بيان وبلاغ لو كان فرعون يعقل ويعي.

ولو كانت مرسلات الوعي في عقله سليمة من العطب الذي حال بينها وبين سلامة الإرسال والاستقبال.

إنَّ فرعون كان متعالياً مكابراً، وكان يرى أنه فوق البشر لأن ملكه عريض، ولأن الأنهار تجري من تحته، وكان عنيفاً مع معارضيه، متكبراً على رجاله وحاشيته يقال: إنه كان إذا غضب على أحد صلبه في جذع النخلة حتى يموت، ويقال:إنه كان يجعل لمن يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذِّبه أشدَّ العذاب.

ما اسم فرعون يا ترى؟

قيل هو الوليد بن مصعب، وقيل: قابوس بن مصعب، وقد حكم مصر كما تقول الروايات على مدى سبعة وستين عاماً من 1279- 1213 قبل الميلاد.

سبعة وستون عاماً من الملك والتسلط جعلت هذا المكابر يعيش في سكرة المال والجاه والقوة وهوى النفس ونزغات الشيطان.

سكرات قاتلات ظلَّت تحيط بعقله وقلبه، وتسيطر على روحه ونفسه حتى أهلكته وأغرقته.

لقد ابتلى الله سبحانه وتعالى فرعون بالسنين العجاف، وبنقص الثمرات، ثم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، إنها آيات مفصَّلات واضحات أظهرت عجز هذا المدعي للربوبية عن كشفها، ومع ذلك استمر في مكابرته واستمر أتباعه في تصديقه والخضوع له.

ولنا أن نتوقف قليلاً أمام هذه الآيات، ونوازن بينها وبين قدرات فرعون البشرية، وقدرات جيوشه وحشمه وخدمه ثم ننظرَ إلى ادعائه الربوبية، وإصراره على ذلك، وانسياق الآلاف من قومه الذي استخفَّهم فاتبعوه اتباع الذين لا يفكرون ولا يبصرون، إننا عند ذلك سندرك مدى الغفلة القاتلة التي جثمت على صدور هؤلاء القوم الذين لا يفقهون حديثاً.

زوج ماشطة بنت فرعون أدرك الحقيقة، وتأمل الموقف وعرف حقيقة الادعاء الكاذب في قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ و ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

بعد أن جاءت آيات الله البينات، ومعجزاتُهُ الواضحات.

أدرك زوج الماشطة حقيقة الضعف البشري الهائل أمام قوة الله وقدرته، فآمن بربه العظيم، وكفر بفرعون الحقير، وأمنت بالله زوجته ماشطة بنت فرعون، وكتما إيمانهما، ولكنَّ النور لا ينكتم، وضوءه

الساطع لا يخفى فبلغ فرعون إيمان الرجل، وتأكد من ذلك فأمر به فقتل بعنف وقسوة شهيداً ـ إن شاء الله ـ، وخلَّف زوجته المؤمنة تكتم إيمانها وخمسة أطفال صغاراً.

ماشطة بنت فرعون حرصت على الاستمرار في عملها، وكتم إيمانها بالله حرصاً على جلب القوت لأطفالها الخمسة.

ومرَّ بها على ذلك زمن، وهي تعيش في جنبات القصر ماشطة لابنة فرعون المدَّعي للربوبية، وهو لايعلم من أمرها شيئاً، ياله من إله كاذب، كيف يكون للناس ربَّاً أعلى، وهو عاجز عن كشف ما يجري داخل قصره؟!

وذات يوم سقط المشط من يد الماشطة وهي تمشط شعر بنت فرعون، فقالت: باسم ربي، فقالت لها بنت فرعون: تقصدين أبي؟ قالت:

بل ربي الله تعالى إلهي وإله أبيك وإلهك.

كلام واضح لم تستطع الماشطة أن تدفعه، وتصدَّ عن لسانها حلاوة النطق به.

كانت كلماتها صدمة عنيفة لقلب بنت المكابر، لأنه كان قلباً مسكوناً بالغفلة، مخموراً بسكرة الوجاهة والملك.

ويعلم فرعون بما قالت الماشطة، فيزداد عمىً على ما هو فيه من العمى، ولا يتساءل عن السبب الحقيقي، ولا يجد حوله من المطبلين له من يرشده إلى الحق.

أزبد وأرعد، وطلب الماشطة ليتأكد، وجيء بها إليه، فأدهشه ما رأى من ثباتها، ورباطة جأشها، واطمئنان قلبها.

وسمع منها الحقَّ الصريح، الذي يعني في فهمه السقيم «الكفر الصريح».

وهدد وتوعَّد، وطلب منها أن تنطق بكلمة الكفر، فأبت كلَّ الإباء، ووقفت على قمَّة يقينها الشمَّاء.

ولولا مكابرة فرعون وغفلته، لرأى ـ عن طريق الماشطة ـ نور الحق، واهتدى إلى سواء السبيل.

هنا هزيمة نكراء لإنسان مغرور يدَّعي ما لايتفق مع نقصه البشري، وهنا فضيحة كبرى لذلك الإله المزَّيف الذي لايملك من أمر العاملين في قصره شيئاً. وكانت الهزيمة الكبرى في هذا الموقف متمثلة في أمر فرعون بأن تعذَّب الماشطة وتقتل أشد وأنكى أنواع القتل.

وجيء بها وبأبنائها الخمسة، ونصب أمامها قدر كبير يغلي فيه الماء، والنار من تحته تشتعل وهدَّدها بإلقاء أبنائها في هذا القدر واحداً واحداً إن لم تعلن كفرها بالله عز وجل، وتنطق بإقرارها بألوهية فرعون.

كان في وسعها أن تتظاهر بما أراد لتنجو بنفسها وبأبنائها من الانصهار في ذلك الماء الذي يغلي، مع بقاء إيمانها الحقيقي في قلبها، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أسرار القلوب ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: 106].

ولكن جذوة الإيمان في قلب الماشطة كانت في أوج اشتعالها المضيء.

إنها تعيش ـ في تلك اللحظة ـ أحلى لحظات حياتها متعةً وراحة ضمير، وهي لحظة خاصة جداً تجعل الإنسان أكبر من كل تعذيب وألم.

وإنهزم فرعون المكابر شر هزيمة بعد أن نفذ حكم القتل الفظيع بإحراق أبناء الماشطة واحداً واحداً أمام عيني أمهم، ثم إلقائها في الماء المغليٍ بعدهم.

يقال: إنه سألها ماذا تتمنى قبل إلقائها في القدر، فقالت: أن تأمر بجمع عظامي مع عظام أولادي وأن تدفن في حفرة واحدة.

ويقال: إن رضيعها حينما أخذ ليلقى قبل أمه في القدر هزَّ قلبها الرقيق هزَّاً، وأصابها حزن جارف وهو يصرخ فطيَّب الله قلبها بأن أنطقه فقال: لا تخافي يا أمَّه فأنت على الحق، فهان عندها كل شيء.

أين فرعون في هذه اللحظة؟

إنه مدفون في أسوء حفرة من حفر المكابرة والغرور والهزيمة الهائلة عقلاً وروحاً.

هل انتهى كلُّ شيء في حياة هذا المكابر العنيد؟

كلاَّ، فالأيَّام حبلى بالأحداث.

وقد سبقت قصَّته مع الماشطة وزوجها وأبنائها مواقف وعظات كثيرة.

هناك في مدين عاش موسى عليه السلام عشر سنوات بعد هروبه من فرعون وقومه، عشر سنوات قضاها في رعي الغنم لذلك الشيخ الذي التقى به موسى بعد أن سقى لابنتيه.

من ذلك الشيخ يا ترى؟

قيل هو شعيب عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوَّج بابنته.

وقيل اسمه شعيب، وكان سيد ماء مدين، ولكنه ليس بشعيب النبي.

وقيل: هو ابن أخي شعيب عليه السلام.

وقيل: هو ابن عمه.

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقيل: هو رجل اسمه «يثرون» وهو في كتب أهل الكتاب كاهن مدين، أي: كبيرها وعالمها.

وقيل: اسمه يثرون وهو ابن أخي شعيب عليه السلام.

المهم: أنَّ هذا الرجل قد آنس من ابنته إعجاباً بموسى وأمانته وقوته حين قالت:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

رأى في شخصية موسى ما يدلُّ على ذلك، فعرض عليه أن يزوِّجه بابنته مقابل عمله لديه ثماني سنوات، فإن أتمَّ عشراً فهي من باب التفضلُ منه.

ومضت السنوات العشر.

وعزم موسى على الرحيل، عائداً إلى مصر، ومعه أهله وكان يريد أن يعود متخفياً عن فرعون لزيارة أهله هناك وعاد، ويالها من عودة عظيمة ما كان يحسب لها موسى عليه السلام حساباً.

انطلق موسى مودعاً صهره، ومعه زوجته وأولاده منها والغنم التي اكتسبها في فترة عمله.

كان الليل مظلماً بارداً وتاه موسى وأهله في الطريق، فلم يهتدوا إلى الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يقدح، وبينما هو في خضم هذا الليل المدلهم إذا به يبصر ناراً بعيدة تتأجج في جانب جبل الطور الغربي، وتشير بعض الروايات إلى أن موسى رأى تلك النار وحده دون أهله، لأنها ليست ناراً حقيقية وإنما هي نور أراه الله موسى عليه السلام.

هنا قال مستبشراً لأهله:

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: 29].

وعزم على الانطلاق إليها.

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29].

وماذا جرى بعد ذلك؟!

تغيَّر الأمر كله، وبدأت رحلة النبوة والرسالة والدعوة من هناك.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: 44].

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 30].

تقول الروايات:

كان موسى في واد اسمه «طوى»، فأُمِرَ ـ أولاً ـ بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة في تلك الليلة المباركة.

وتشير بعض روايات أهل الكتاب إلى أن موسى عليه السلام وضع يده على وجهه من شدَّة ذلك النور، مهابةً له وخوفاً على بصره.

هنا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده موسى ما أصبح به نبياً رسولاً.

وتأتي الدلائل القاطعة مباشرة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17].

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه: 19].

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: 20].

هنا تحولت طبائع الأشياء، لأن الله سبحانه وتعالى هو المتصرِّف فيها.

حية تسعى؟ إنه لأمرٌ مخيفٌ للإنسان.

ولكنَّها معجزة من المعجزات التي سيكون لها شأن عظيم، يقال: إن موسى هرب لمَّا رآها حيَّة تسعى فأمره الله عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدَّت عصا في يده.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: 31].

يقال: إنها صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ، والجان نوع من الحيات ذوات الحركة السريعة جداً.

هنا هرب موسى، ولم يعقب، أي: لم يلتفت.

فناداه ربُّه:

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: 31].

وماذا بعد؟!

أمر الله موسى أن يدخل يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء.

يالها من معجزة عظيمة!

لقد أصابت موسى الرَّهبة، ولهذا قال له ربه: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: 32].

قال ابن كثير: قيل: معناه: إذا خفتَّ فضع يدك على فؤادك حتى يسكن بذلك خوفك ويهدأ قلبك، وهذا العمل وإن كان هنا خاصّاً بموسى عليه السلام إلاَّ أنَّ بركة الإيمان به حقٌّ، ينفع ـ بإذن الله ـ من فعله على وجه الاقتداء، فإنَّ من يرهب أو يخاف، فيذكر الله ويضع يده على قلبه، يجد الهدوء والسكينة.

هنا تلقى موسى الأمر من ربِّه بالرسالة، والبلاغ والدعوة لفرعون وقومه.

يالها من رسالة عظيمة..!.

لقد كان موسى عازماً على الدخول متخفيّاً إلى مصر حتى لا يعلم بوجوده فرعون الذي سبق أن أصدر حكماً بقتله قبل هروبه إلى مدين.

والآن يبعثه الله نبياً إلى عدوه الأكبر فرعون الذي يدعي أنه إله من دون الله.

إنها رسالة عظمية حقاً.

ولهذا قال موسى لربه:

﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: 33].

هنا يعبر موسى عليه السلام عن قلبه وخوفه من ذلك العدوِّ المتسلط، ويتبع ذلك بطلب يطلبه من ربه ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: 33].

لقد سأل موسى ربه العون والتأييد، فأجابه سبحانه إلى ما يريد:

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35].

ياله من وعدٍ إلهي صادق أشاع في نفس موسى عليه السلام الاطمئنان.

فهنا وعد بالنصر والتأييد والغلبة، مع أن موسى مايزال في أول الطريق.

إنها قدرة الإله العظيم سبحانه وتعالى.

ستبدأ الآن رحلة البيان والبلاغ والدعوة مع المكابر المغرور المتسلط «فرعون».

إنها رحلة عجيبة برز فيها دور المكابرة الخطير في إهلاك صاحبها.

ذهب موسى ومعه أخوه هارون إلى عدوهما الألدّ فرعون فبلّغاهُ الرسالة بوضوح، وأخبراه أنهما رسولان من رب العالمين.

لقد كانت مفاجأة مذهلة لفرعون الذي بدأ بمعاتبة موسى على قتله لذلك الرجل من قوم فرعون من قبل، وبتذكيره بأنه تربَّى في بيت فرعون وبقي عنده سنوات عدَّة في راحة ورغد من العيش.

واعترف موسى لفرعون بما في بعض كلامه من الحق، وذكَّره بأنه قد عبَّد بني إسرائيل واستخدمهم سنوات طويلة، مقابل ما حصل من رعايته لموسى حينما نشأ في قصره.

بدأت هنا رحلة المعاناة مع المكابر العنيد.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: 23].

قال موسى:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24].

هنا تحركت العنجهية والمكابرة، فالتفت إلى من حوله من رجاله الغافلين وتساءل:

﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25].

لكأني بهم يهزُّون رؤوسهم مندهشين في إشارة تعبِّر عن مشاركتهم لسيدهم في المفاجأة المذهلة.

هنا ألقى إليه موسى الجملة الأخرى المكملة للمعنى:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: 26].

لقد تجاوز الأمر الحدود بصورة لم يكن يتوقعها فرعون ولذلك قال:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27].

كأنه هنا يحاول أن يتماسك، وأن يؤكد لحاشيته وأتباعه أن الحقَّ فيما هم عليه، وأن موسى الذي يقول ما يسمعون الآن «مجنون» وما دام كذلك فهو لا ينطق بالحق.

محاولة من مكابر أراد بها أن يصرف هذه المعاني الجديدة عن أذهان أتباعه، ولولا أن أتباعه قد غرقوا في غفلتهم لا نتبهوا إلى الحق الواضح، خاصَّة بعد أن قال موسى مكملاً رسالته:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: 28].

إنها حقائق ناصعة، وحجج دامغة، وظواهر كونية شاهدة بأن الله هو الإله الحقّ.

ولكنَّ مكابرة فرعون ما تزال واقفة أمامه كأنها حائط عظيم من الظلام إلبهيم.

لقد صرف ذهنه عن تلك الحقائق كلِّها، وبدأ يتحدث بمنطق المكابر المغرور:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: 29].

تهديد ووعيد، هي أدوات الطغاة المكابرين التي يغطُّون بها عجزهم وضعفهم البشريّ.

لقد ضاق ذهن فرعون المكابر عن إدراك الحقائق الكبرى التي ذكرها موسى له:

1- رب السماوات والأرض وما بينهما.

2- ربكم ورب آبائكم الأولين.

3- رب المشرق والمغرب وما بينهما.

إنه صغير العقل، ضعيف التفكير، أعمى البصيرة، وما دام كذلك فسوف يأخذه موسى عليه السلام على قدر عقله وفهمه الصغيرين.

قال له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: 30].

ليس هنالك شيء مبين أعظم من خلق السماوات والأرض والمشارق والمغارب والكون بما فيه والإنسان بما فيه. ولكنَّ المكابرين من البشر يحتاجون إلى أدلّة محسوسة تناسب عقولهم الضعيفة.

ولهذا قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 30].

ياله من طاغية صغير العقل، ضعيف التفكير!!

في هذه اللحظة ألقى موسى عليه السلام عصاه أمام فرعون فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء يلمع بياضها العجيب كأنها فلقة من القمر تتلألأ.

تقول بعض الروايات: إن فرعون لما رأى العصا تتحول إلى ثعبان خاف وارتجف وحدث له إسهال عظيم احتاج معه إلى الخلاء أكثر من أربعين مرَّة.

سبحان الله العظيم!

أهذا إله كما يدَّعي؟!

ما تزال المكابرة عند فرعون حاجزاً، وما يزال ضعف أتباعه وذلُّهم عنده حاجزاً.

«لا فائدة»

اتهم فرعون موسى بالسحر، وتوعده بجمع أمهر السحرة وأقدرهم.

كل هذه الآيات الواضحة، والمعجزات البينات لم تخترق جدار المكابرة والغرور والجحود.

اتجه ذهن فرعون إلى تحطيم «سحر موسى»، فقد وقر في نفسه، وفي نفوس بطانته السيئة أن المسألة مسألة سحر وشعوذة، ولو كان يفكر بطريقة سليمة لعلم أنَّ ما حدث ويحدث لموسى منذ إلقائه في

التابوت وإلقائه في اليم ، وتربيته في بيت فرعون وهو عنه غافل، إلى مجيئه نبياً رسولاً، إنما هو معجزات واضحات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولو فكر رجال فرعون وخاصَّته بطريقة سليمة لانكشف لهم الأمر بجلاء، فها هو ذا فرعونهم الطاغية لا يستطيع أن يمسَّ موسى بسوء، ولايأمر بقتله، مع أنه يدعي القدرة على كل شيء، وإنَّ في هذا لدليلاً للعقلاء على أنَّ الأمر أكبر من فرعون، وأعظم من ملكه وطغيانه ومكابرته.

إنه أمر الوعد الإلهي الكريم لموسى وأخيه هارون

﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: 35].

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35].

المسألة هنا محسومة، ولكنها معلقة في عقول ونفوس الضالين.

جمع فرعون السحرة من كل مكان، فيا لهذا الإله الزَّائف الذي يحتاج إلى السحرة لتنفيذه ما يريد!

وما أعظم حلم الله عز وجل على هذا الجاحد العنيد!!

اجتمع السحرة في صورة مهيبة مخيفة، اجتمعوا ليهزموا سحر موسى في زعم فرعون.

كم كان عددهم؟

روايات متعددة يجنح بعضها إلى المبالغة، فقد قيل: إن عددهم كان ثمانين ألفاً، وقيل سبعين ألفاً، وقيل إنه كان بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل تسعة عشر ألفاً، وقيل خمسة عشر ألفاً.

وروي عن ابن عباس أنهم كانوا سبعين رجلاً، ولعلَّ هذا القول هو الأمثل والأقرب.

ليس المهم عدد السحرة، وإنما المهم النتيجة.

بَهْرَجٌ كاذب، ومظاهر زائفة، سحرة متمرسون في سحرهم، مجيدون لفنهم، فماذا صنعوا؟

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116].

حبال وعصيٌّ تملأ الميدان تحوَّلت إلى ثعابين وحيَّات مخيفة جعلت موسى عليه السلام يوجس في نفسه خيفة مما يرى، ولأنَّه رسول من ربه فقد أوحى إليه سبحانه في اللحظة نفسها:

﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68].

ماالذي جرى بعد هذا التثبيت الإلهي؟

ألقى موسى ـ بأمر ربه ـ عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، عصا موسى عليه السلام تحوَّلت كما أشار إلى ذلك الرواة إلى: حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت على كلِّ ما ألقوه فجعلت تبتلعه بسرعة هائلة أدهشت الناس.

أما أولئك السحرة فقد أيقنوا أن لامجال للشك في أنَّ الأمر فوق بهرجة السحر، إنه أمرٌ أكبر من أمور البشر، إنهم أمام معجزة إلهية لا سحر فيها ولاشعبذة ولا زور ولا بهتان.

هنا انكشفت عن عقولهم حجب الوهم، وزالت عن قلوبهم أستار الغفلة ورأوا موسى على حقيقته نبيّاً رسولاً.

فسجدوا لله رب العاليمن.

ماذا فعل المكابر «فرعون» وزبانيته؟؟

الجحود نفسه، والضلال نفسه، والمكابرة نفسها.

هذا موقف واضح تماماً، الأولى بالطاغية أن يدرك أبعاده وأن يسجد كما سجد السحرة، ومن يدري؟ ربما لو فعل ذلك لزاده الله تمكيناً في ملكه، مع ما يتحقق له من النجاة من عذاب يوم القيامة.

لكنَّ المكابرة لم تتزحزح عن نفس هذه الطاغية.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: 49].

سبحان الله ما أجهل هذا الإنسان وأشدَّ غفلته!.

ونسأل الله السلامة من هذا الفكر الأعوج الذي لا يستقيم أبداً.

هؤلاء سحرتك يافرعون، أنت الذي جمعتهم من كل مكان، لايعرفون موسى ولا يعرفهم، وأنت الذي اخترتهم لمهارتهم من بين آلاف السحرة، وأنت الذي جمعت لهم آلاف البشر ليشاهدوا معك هزيمة موسى.

فكيف تدَّعي أن موسى هو كبيرهم الذي علَّمهم السحر.

إنه الشقاء نسأل الله السلامة.

لقد رأى السحرة الحق الأبلج، وعميت عنه بصيرة فرعون وظل مسكوناً بوهم ألوهيته الزائفة، فاتخذ قراره المعتاد في مثل هذه الحالات.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [الأعراف: 124].

هذه هي حيلة المهزوم العاجز.

هذا هو منطق المكابر.

هذه هي لغة الغفلة والعناد.

أمَّا لغة المنتصر على هوى نفسه، ووساوس الشيطان.

لغةُ صاحب العقل والبصيرة، فهي لغة أخرى أسمى وأرقى. إنها اللغة التي حملت ذلك الإحساس العميق عند السحرة بعد أن رأوا شمس الحقيقة بلا حجاب.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

لغة قوية لا تعرف الضعف؛ لأن عقول من نطقوا بها قد تخلَّصت من قيود الأوهام، ولأن قلوبهم تحرَّرت من سيطرة الأهواء.

لقد استمرت لغتهم في رقيِّها حتى بعد التهديد والوعيد:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ [طه: 72].

هنا يظهر الإيمان بجلاء، وتتحقَّق فرصة كبيرة لفرعون أن يراجع نفسه لو سلم من مكابرته وعناده.

هل نفذَّ فرعون حكمه فيهم؟

يقول ابن كثير في تاريخه:

الظاهر من هذه السياقات أنَّ فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ـ رضي الله عنهم ـ.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير:

كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

وماذا بعد هذا الدرس العظيم؟

هل توقف المكابر وأتباعه عند هذا الحدِّ؟؟

كلاَّ..

بل جاء دور «الملأ من آل فرعون» أولئك الأتباع الذين استخفهم فرعون فاتبعوه.

الذين قال لهم: «أنا ربكم الأعلى» فهزوا رؤوسهم الذليلة موافقين.

الذين قال لهم: «ما علمت لكم من إله غيري» فأرخوا جباههم خاضعين.

تحرَّك هؤلاء بعد هذا الحدث العظيم، حدث هزيمتهم النكراء أمام الحق في ميدان عام رآه الناس جميعاً، حدثِ إيمان سحرتهم إيماناً راسخاً كالجبال، حدثِ ظهور الحق الذي جاء به موسى حتى غدا كالشمس تراها عيون الناس جميعاً.

لقد رأى رجال فرعون، وخاصَّته أنهم يقفون موقفاً خطيراً الآن.

وأنَّ موقف بني إسرائيل قد أخذ يقوى بظهور هذه الآيات البيِّنات على يد نبيّ الله موسى عليه السلام.

فلا بد من عمل شيء.

إنها المكابرة التي تمسك بتلابيب فرعون وتجرُّه إلى الهلاك جرَّاً، وتمسك بتلابيب رجاله لتكمل مشهد مأساتهم الرَّهيب.

إنَّ الموقف العام عند هزيمة مكر فرعون وكيده يشير إلى أن الحق قد ظهر وبان، والباطل قد انكشف، وهذا موقف من مواقف مراجعة النفس، وفرصة من فرص اعتناق الحق لو كان فرعون ورجاله بمنجاةٍ من سيطرة روح المكابرة والعناد عليهم..!

أمَّا وهم ما يزالون في غمرة المكابرة، فقد جنحوا إلى زيادة الطغيان والعنف.

كيف؟

لقد قال الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء الذين أعمتهم مصالحهم ومناصبهم عن الحق: ﴿**أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ [الأعراف: 127].

هنا توجَّه العزم إلى إبادة قوم بكاملهم، وهنا ظهر حجم المكابرة الضخم الذي لايمكن أن يسمح بوصول بصيص من ضوء الحكمة إلى عقول القوم.

إنه اقتراح بالإبادة، وقد وافق هوىً في نفس الطاغية فرعون الذي كان تحت ضغط الهزيمة النكراء التي مني بها، وتحت ضغط ذلك الهتاف الجماهيري الكبير لموسى عليه السلام بعد انتصاره على سحر فرعون وكيده ومكره؛ ولهذا كانت الاستجابة السريعة من فرعون:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127].

سبحان الله العظيم! ما أعظم غفلة هذا المكابر! وما أعرض قفاه! وما أسوء طويّته..!.

إنَّ جملة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127] لتدلُّ على نفس مغلقة، وقلب جامدٍ لا يحسّ وعقل غافل لا يعي.

هزيمة وراء هزيمة تلحق بفرعون منذ ساق البحر ذلك التابوت حاملاً ذلك الرَّضيع إلى داره، ومع ذلك فهو ماض في مكابرته، مسرف في طغيانه.

ماذا قال موسى حينما بلغه خبر عزم فرعون على الإبادة الجماعية؟

قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

إنَّ في كلام موسى عليه السلام ما يوحي بأنها المعركة الفاصلة التي ستكون نهايةَ المكابرين فيها.

إنَّ قوَّة فرعون المادية ما تزال قوَّة ضاربة، ولكنَّ ما جرى في ذلك الميدان العامِّ من التهام عصا موسى لما جاء به السحرة يشيع روح الاطمئنان في قلب موسى وهارون ومن آمن معهما.

لقد عزم الطاغية على ارتكاب جريمة القتل لموسى وقومه وأخذ يردد ما يردده كل طاغية من عبارات التضليل والادعاء والتظاهر بالإصلاح، والكذب الصُّراح.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26].

سبحانك يا ربي، هذا بهتان عظيم، وادعاء كاذب لايصدقه عاقل ولاجاهل.

ولكنَّ المكابرين هكذا يتحدثون ، وهم يعلمون أن قولهم غير صحيح، وأن الناس العقلاء يفهمون أنهم يكذبون، ولكنهم مع ذلك يدَّعون ويتحدثون، ومن حاول أن يقول كلمة الحق من الناس لقي من ظلمهم واعتدائهم ما لا يخطر له على بال.

هكذا تكون أبواق الباطل كاذبة خادعة.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: 26].

يالها من جملة مشحونة بالتضليل!

يقول ابن كثير: ولهذا يقول الناس على سبيل التهكُّم والسخرية «صار فرعون مذكِّراً ومرشداً».

المكابرة هنا تجاوزت الحدود، والظلم هنا يبحلق في موسى بعينين من لهب حارق ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

هنا لجوء إلى الله العليِّ القدير الذي يقصم بقوَّته ظهور الجبابرة والطغاة.

لقد تجاوز موقف فرعون الحدود، وهذا ما جعل مؤمناً كان يخفي إيمانه وهو من آل فرعون، يقولها مجلجلة في وجه فرعون ﴿رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28].

سؤال صريح لا يقبل التأويل، سؤال مفاجئ لفرعون وأعوانه، سؤال لافت للنظر، هزَّ نفس فرعون، وأثار اهتمامه لأنه جاء من أحد أقاربه وأهل بيته.

يقول الرواة: إنَّ هذا المؤمن من آل فرعون هو ابن عمه، وأنَّ اسمه «شمعان»، وقيل إن اسمه «خير» وقيل إنه ابن فرعون الذي عرف فيما بعد بـ «أخناتون» وهو في رأي بعض المؤرخين «ذو القرنين» المذكور في سورة الكهف، في تفاصيل كثيرة ليس هذا مقام نقلها.

ولربما كان هذا القول راجحاً بدليل أن فرعون لم يعاقب هذا المؤمن من أهل بيته.

ومما يروى عن ابن عباس قوله:

إنه لم يؤمن من القبط بموسى عليه السلام إلا ثلاثة:

1- الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينذر موسى ويحذِّره من القتل، وينصحه بالهروب.

2- آسية امرأة فرعون.

3- مؤمن آل فرعون هذا الذي نصح فرعون هذه النصيحة لقد قال «مؤمن آل فرعون» قولته الواضحة، واستخدم أسلوب الترغيب والترهيب:

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: 29].

سؤال واضح، وموعظة ذات قيمة كبيرة عند من يعي.

أما المكابر فرعون فقد أغلق الباب مباشرة أمام هذا المؤمن من أهله قائلاً: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

عبارة مغلقة تماماً، مظلمة تماماً، متغطرسة تماماً؛ أيّ سبيل للرشاد يهدي إليه فرعون؟؟

سؤال يشتعل في ثياب الطاغية ليحرق زيفه وكذبه، هكذا تقوم الحجج الدامغات على فرعون وهو سادر في غفلته؛ غارق في مكابرته.

إنه يقترب بنفسه من سوء عاقبته، ويستدني بمكابرته هلاكه ولحظة نهايته.

لقد زاد تخبُّط فرعون، وفقد توازنه وطلب من وزيره المكابر هامان أن يبني له صرحاً طويلاً لعله يرى من قمته إله موسى الذي يدعيه، وسواءٌ أكان جاداً أم ساخراً من موسى بهذا القول، فإنه قول يدل على الانغلاق.

وماذا بعدُ في هذه الرحلة العجيبة؟!

لقد زاد الله سبحانه وتعالى حججاً وبراهين وآيات أخرى لعلَّه يستيقظ ويثوب إلى رشده.

ونقول: سبحان الله العظيم، ما أوسع حِلْمَهُ، وما أعظم رحمته بعباده.

لقد ذهبت نصيحة «مؤمن آل فرعون» أدراج الرياح، فجاءت آيات متعاقبات:

1- **الطوفان:** أمطار غزيرة، وفيضانات أتلفت الزروع والثمار، حتى إذا خرَّبت الديار لجأ قوم فرعون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله لكشف ما حصل، ويعدونه بالتوبة، فيدعو الله سبحانه، وتنكشف الغمَّة ولا يتوبون.

2- **الجراد:** حيث جاءهم أفواجاً سدّت عليهم الأفق فلم يترك لهم زرعاً ولا ثمرا فطلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع، فلما دعا وانكشف البلاء أعلنوا إصرارهم على كفرهم.

3- **القـمَّل:** قـيل هـو السـوس الذي يخـرج من الحـبـوب، وقـيل هو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وقيل هو دوابٌّ سود صغار، وقيل هي البراغيث، وقيل هو القَمْلُ المعروف الذي ينتشر في شعر الرأس. ومما يروى أن موسى عليه السلام قد أمر من ربه أن يمشي إلى كثيب من الرمل، وأن يضربه بعصاه، فتحول قُمَّلاً وانثال على قوم فرعون حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم؛ وعند ذلك طلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع فدعا وأجاب الله دعوته، ثم نكثوا عهدهم.

4- **الضـفـادع:** تكاثرت عليهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع فطلبوا من موسى الدعاء فدعا وانكشف البلاء وأصرُّوا على عنادهم.

5- **الدَّم:** حيث مازج كلَّ ما يشربون فلا يستقون ماءً إلا وجدوه دماً خالصاً؛ يحدث ذلك لقوم فرعون ولايحدث لموسى وقومه، فلما اشتد عليهم الأمر طلبوا الدعاء من موسى، فدعا، فانكشف البلاء وأصرُّوا على ضلالهم.

إن هذه الآيات والدلائل المعجزات لكافية تماماً، بل إنَّ واحدة منها تكفي لبيان الحق، وقد اقتضت إرادة الله عز وجل أن تأتيهم هذه الدلائل لتؤكد للناس مرّة بعد أخرى عجز فرعون، وبطلان ادعائه الربوبية، فلو كان إلهاً قادراً كما يدعي لما وقف عاجزاً عجزاً تاماً أمام كلِّ آية أيَّد الله بها موسى عليه السلام.

لقد أكدت المواقف المكابرة من فرعون وقومه بعد هذه الآيات كلِّها، أنهم في حالة من الجحود والكفر والضلال لا دواء لها، وأنَّ قلوبهم قد أصبحت أقسى من الحجارة؛ فما عاد فيها للموعظة مكان.

إنها المكابرة التي لا مجال معها لوعي ولا مكان فيها لتذكير؛ فماذا بعد هذا كلّه؟؟

لقد تأمَّل موسى شأن هذا المكابر وقومه فرأى منهم إيغالاً في المكابرة، وهي مبالغة في العصيان، مع ما آتاهُم الله من النعم، والقوة، والأموال والأولاد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: 88].

قال المفسرون: هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصدِّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوِّه برغم كل ما جاءه من الآيات والنذر والمعجزات.

دعوة من موسى وافقت باباً مفتوحاً، فأوحى الله إلى نبيه أنَّ هذه الدعوة قد أجيبت، وأنَّ فرعون وقومه قد استحقوا النهاية اللائقة بأمثالهم، كما استجاب الله سبحانه وتعالى من قبل لنبيِّهِ نوح عليه السلام حينما تمادى قومه في ضلالهم فدعا عليهم.

كيف كانت النهاية؟!

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عبده الآبق المكابر فرعون بأنه قد علا في الأرض بغير الحق وتجبر فيها. وبأنه قد أسرف في ضلاله وتجاوز الحدَّ.

وبأنه قد قابل كل الدلائل والمعجزات بالجحود والنكران.

وهنا لابد من الجزاء.

بدأت نهاية الطاغية، بتوجيه من الله إلى نبيه موسى عليه السلام.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: 87].

قال المفسرون: إنَّ هذا أمر من الله إلى موسى وأخيه بأن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة منحازة عن بيوت القبط قوم فرعون ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمرهم الله به، لأنهم إذا انحازوا عن قوم فرعون استطاعوا معرفة بيوتهم، وتمكنوا من الاجتماع حينما يأمرهم الله بالرحيل في أسرع وقت ممكن، كما أمرهم بأن يستعينوا بإقامة الصلاة والصبر حتى يأتي الفرج.

قال ابن كثير في تاريخه:

استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وقد كان ذلك مكيدة منهم ليخرجوا وليتخلصوا من فرعون وقد أمرهم الله أن يستعيروا

حلياً من قوم فرعون لاستعمالها في عيدهم فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرج بنو إسرائيل في ليل بهيم وانطلقوا طالبين بلاد الشام فبلغ ذلك الخبر فرعون، فاشتد غضبه وأمر بتجهيز جيش عظيم ليلحقهم ويسحقهم .

هنا نزل القضاء المبرم ولهذا عميت البصيرة الفرعونية تماماً، فما عاد يفكر في الأمر تفكيراً سليماً.

إن مكابرته جعلته يعيش غيبوبة الاحتقار لبني إسرائيل، ومنعته من استذكار كل الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى، ولو فكَّر فرعون تفكيراً سليماً لأدرك أن موسى منصور من ربِّه، ممنوع منه، ولو لم يكن كذلك لتمكن فرعون أن يقتله من قبل.

لقد انطلق فرعون بجيشه العظيم كالذي أصابه الجنون فلحق بموسى وقومه عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان وتقابل الجيشان، وزال كل شك من النفوس، وأصبح كلّ من الفريقين أمام حقيقة كبرى لمعركة كبرى لا مناص منها.

هنا قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

فالبحر أمامهم، وجيش فرعون العرمرم خلفهم، وصورة جبروت فرعون وظلمه على مدى سنوات طويلة تسيطر على عقولهم فقالوها عالية بها أصواتهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

هذا كلام البشر بمقاييسهم المادية.

أما كلام النبي المرسل موسى عليه السلام فقد جاء مناقضاً لما قالوه:

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

هكذا تتجلَّى النهايات العظيمة: فرعون وجيشه يتميّزونَ غيظاً ويتجهزون للانقضاض على بني اسرائيل والتهامهم، وقوم موسى في وجلهم وخوفهم، وموسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، ومعهما مؤمن آل فرعون رضي الله عنه ينظرون إلى البحر وإلى جيش فرعون وفي قلوبهم اطمئنان إلى تحقق وعد الله «قد أجيبت دعوتكما».

كان موسى واقفاً أمام البحر في موقع لم يحد عنه قائلاً: من ها هنا أمرت، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون عليهم السلام جميعاً.

وكان مؤمن آل فرعون يحاول أن يقتحم بفرسه البحر ويقول لموسى: يا نبيَّ الله أهاهنا أمرك الله؟ فيقول موسى: نعم.

ظلّ الأمر على هذه الحال وقد دنا أوَّل جيش فرعون من المكان، وبلغت قلوبُ القوم الحناجرَ، هنا أوحى الله عز وجل إلى موسى: «أن اضرب بعصاك البحر».

يالها من عصا عجيبة قامت بدورها الكبير منذ أن بدأ الوحي إلى موسى عليه السلام، وستظل تقوم بأدوار جليلة إلى أن يفارق موسى الحياة.

انفلق البحر اثنتي عشرة طريقاً، وأصبح ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً صلباً بقدرة الله عز وجل.

انطلق بنو إسرائيل في طرقات البحر اليابسة وفرعون وقومه ينظرون إليهم فاغري الأفواه، مشدوهين لا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة.

أليس هذا مقام موعظة عظيمة؟

ألم يكن بوسع فرعون أن يصرخ بها مدوية أمام هذا الحدث العظيم:

«آمنت بالله».

بلى، كان بإمكانه ذلك لولا حاجز المكابرة.

قال الرواة: إنه التفت إلى قومه فقال مكابراً كاذباً: أرأيتم كيف انفلق البحر حتى ألحق بهؤلاء العصاة؟! وكأني برؤوس الغافلين الذين معه تهتز موافقة له في دعواه.

لقد كان فرعون موقناً في دخيلة نفسه أنه أمام معجزة عظيمة، ولكنَّ مكابرته حالت دون اعترافه بالحق.

لقد تردَّد وتهيَّب من سلوك تلك الطرق العجيبة في البحر ولكن قدر الله سبحانه وتعالى إذا نزل لا يمكن أن يُرَدَّ .

فمما يروى أن جبريل نزل بفرس مرَّ بها أمام حصان فرعون فحمحم الحصان وانطلق وراءها داخلاً في طرقات البحر، وفرعون لا يريد، لقد دخل المكابر ودخل معه جيشه العرمرم حتى إذا استقروا في طرقات البحر أمر الله البحر أن يعود إلى طبيعته الأولى.

عاد البحر كما كان فطمس معالم جيش عظيم.

سبحانك يا عظيم.

ماذا جرى للمكابر فرعون؟؟

لما رأى الموت الحقيقي وعلم أنه غارق لا محالة قال: ﴿آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

أرأيتم أيها الأحبة؟ تأمَّلوا هذه الكلمة التي قالها فرعون في هذا المقام، إنها الكلمة التي كان يجب عليه أن يقولها من أوَّل لقاء له بموسى عليه السلام.

لقد جنت عليه مكابرته، فتأخرت كلمة النجاة إلى الوقت الذي لم يعد لها فيه قيمة.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى له:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91].

سؤال لا جواب له عند فرعون المكابر العنيد، وكيف يجيب وهو من الغارقين؟!

كان بنو إسرائيل في حالة ذهول وهم ينظرون إلى هذه المعجزة العظيمة، ويقال: إنهم لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ومات بسبب ما عانوا من طغيانه الطويل.

لكأنني بهم في هذا المقام يتذكرون قولهم لموسى قبل انفلاق البحر وعبوره:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

فيخجلون من أنفسهم ومن موسى، ومن رب العالمين:

أما موسى فهو في أسمى حالات خضوعه لربه العظيم الجليل: ألم يقل في أحلك المواقف:

﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

وهو بذلك في أرقى حالات شعوره بالنصر المبين.

مات فرعون.

مات المكابر العنيد..

مات الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

نعم لقد مات وانتهى، وحتى يكون موته ونهايته عبرة للناس فقد طفا جسده فوق الماء.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92].

في لحظة قصيرة تغيَّرت المعالم، واختلفت المقاييس، وأمام الجموع البشرية التي كانت مستضعفة من فرعون، انتهت حكاية كانت كابوساً جاثماً على صدر مصر وما حولها، انتهت مملكة عظيمة كان لها صيتها، انتهى جيش جرَّار كانت له صولته في البلاد.

أين الأنهار التي كانت تجري من تحت فرعون؟

أين الكرسي المرصَّع بالجواهر الذي كان يجلس عليه؟

أين الأتباع الذين كانوا يطيعونه في باطله دون تردُّد أو اعتراض؟

كلُّ ذلك ـ انتهى ـ في لحظة واحدة.

تلاشى أمام قدرة الله الذي يقول: «كن»

وإذا قال ـ سبحانه ـ: «كن» لأي شيءٍ «كان».

نهاية جاءت بعد إمهال طويل من خالق الكون الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وأحاط علمه بكل شيء وهو على كل شيء قدير.

وقفة مع مؤمن آل فرعون:

في كتابٍ يسمى «فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج» أشار الباحث «حمدي بن حمزة أبو زيد» إلى أن مجموعة من الدلائل والمواقف تشير إلى أنَّ مؤمن آل فرعون الذي وقف مع موسى ونافح عنه في قصر فرعون، إنما هو «أخناتون» ابن فرعون نفسه، الذي كان اسمه «امنحوتب الرابع» وهوابن «امنحوتب الثالث» الملك الفرعوني الطاغية، وطرح مؤلف الكتاب السابق الأستاذ «حمدي» عدداً من الافتراضات التي بناها على دراسات ومتابعات، وأسفارٍ متعددة، رأى أنها ترجح ما ذهب إليه من أن «أخناتون» هو مؤمن آل فرعون المذكور في القرآن، وأنه ابن فرعون الذي أغرقه الله مع جنده بعد رحلة طويلة من العناد والمكابرة، بل إن الكاتب ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فأشار إلى أن العلاقة قد نشأت بين موسى وأخناتون في قصر فرعون الذي نشأ فيه موسى وترعرع، وتوطدت بينهما العلاقة، وبناءً على ذلك رجَّح الكاتب أن الذي أخبر موسى بعد أن قتل القبطي الذي كان في شجار مع رجل من بني اسرائيل فوكزه موسى فقضى عليه،

إنما هو أخناتون نفسه، إما أنَّه أسرع إلى موسى وأخبره أن القوم يريدون قتله، وإما أنه أرسل أحد الثقات من رجاله ليخبر موسى، فهرب عليه السلام إلى مدين.

وحينما عاد موسى رسولاً إلى فرعون كان أخناتون على معرفة سابقة به، فآمن بما جاء به سرّاً، وبقي يكتم إيمانه حتى رأى المؤامرة الكبرى من فرعون وحاشيته على موسى وقومه بعد الآيات والمعجزات التي جاء بها، وفضح بها أمر فرعون، هنالك، قال «أخاتون»:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: 28].

ومما رأى الكاتب «حمدي أبو زيد» أنَّ عدم إقدام فرعون على قتل هذا المؤمن من أهله، وعدم إقدام أحد من رجال فرعون ومستشاريه وحاشيته على تحريض فرعون على قتله، دليل على أن هذا المؤمن ذو قرابة خاصةٍ لفرعون، ولن تكون هذه المنزلة إلا للابن.

ثم يذهب الكاتب إلى أن أخناتون كان مع موسى حينما وقف بقومه أمام البحر، ومن ورائه جيش فرعون، وأنه عبر مع موسى البحر بعد أن صار رهْواً حين ضربه موسى بعصاه، وأنه عاد بعد هلاك والده فرعون وجنوده إلى مصر ليتولى الملك بعد أبيه وأنه كان مؤمناً، ونادى إلى الإيمان بالله، ولقي مواجهة عنيفة من الكهان وغيرهم، وأن جيشه كان ضعيفاً بعد أن أغرق الله سبحانه وتعالى معظم الجيش الذي كان مع والده، وأنه رحل بعد سنوات إلى جهات عديدة، فهو «ذو القرنين»

الذي وردت قصته في سورة الكهف، وقد بقي في الصين بعد بناء الرَّدم بين السدين دون يأجوج ومأجوج، وأصبح ملكاً متوجاً فيها، وقد توارث الملك عدد غير قليل من أبنائه في الصين.

وذكر المؤلف عدداً من الأخبار والمشاهدات المثيرة يمكن للقارئ الكريم والقارئة الكريمة أن يعودوا إليها في الكتاب المذكور سابقاً؛ ونقول:

كم في الكون من أسرار لا يعلمها إلاَّ الله

المكابر الثامن

«إنما أوتيته على علم عندي»

حينما يفقد الإنسان القدرة على التفكير السليم، والرؤية السديدة لحقائق الأشياء، وحينما تنطمس البصيرة التي تساعد صاحبها على رؤية الحق، فإن الإنسان يتحول في هذه الحالة إلى مستوى هو أدنى من مستوى البهائم.

﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

لماذا يهبط الإنسان المكابر المصاب بعمى البصيرة إلى هذا المستوى المتدني؟.

لأنه يصبح أعمى البصيرة، مطموس الفطرة، فلا هو في منزلة الحيوان الذي يتصرف بفطرته، ولاهو في منزلة الإنسان الذي يتصرَّف بعقله ووعيه، وهنا يهبط الإنسان المكابر إلى ما هو أدنى من منزلةِ الحيوان.

لا يمكن لصنف من أصناف الحيوان أن يقول كلمة الكفر والجحود والإنكار لله عز وجل.

بينما يقول الإنسان المكابر ذلك.

لا يمكن لأي صنف من أصناف الحيوان أن يغفل عن تسبيحة لربِّه فهو مرتبط بالله بطبعه.

أما الإنسان فيتعمد أن يقول كلمات الكفر والجحود، متجاوزاً بذلك مرحلة الغفلة عن ذكر الله وتسبيحه «وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده».

فكل المخلوقات تسبح الله بطريقتها الخاصة والمكابر ينقطع عن هذا التسبيح.

لا يمكن لأيٍّ صنف من أصناف الحيوان أن ينحرف من حيث الممارسات الجنسية عن طبيعته التي خلق عليها أما الإنسان المكابر فهو يرتكب أسوأ الأفعال في هذا المجال.

إن لسان المكابرة لسان بذيء، مجبول على النطق بما يسوء من الكلام، والتحدث بما لايجوز من العبارات وادِّعاء ما لايصح من الأعمال والأقوال.

هذا مكابر عنيد، فتح الله له خزائن الدنيا فما زال يجني منها ويزداد ثراءً حتى أصبح مضرب مثل في ذلك. أموال طائلة، وأملاك عظيمة، وترف لا يكاد يصدقه من رآه.

خزائن الأموال مازالت تكثر عدداً حتى أصبحت عبئاً عليه. وحتى غدت مفاتيحها حملاً ثقيلاً تحتاج إلى عدد من الرجال يتعاونون في حملها.

دنيا مفتوحة على مصراعيها لهذا الإنسان، يحصد المال حصداً ويبني من الحصون ما أراد، ويقيم من المزارع والبساتين ما أراد.

كل شيء من متاع الدنيا بين يديه.

نعمة عظيمة، حقُّها على صاحب القلب السليم الشكر لله عز وجل على ما سخَّر منها وأنعم.

أما الإنسان المسكون بالجحود والمكابرة فله مع النعمة شأن آخر.

غرور، كبرياء، إعجاب بالنفس، استهانة بالناس، انغماس في الملَّذات المحرَّمة، ابتعاد عن طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته.

هذا هو شأن هذا المكابر الذي أنكر فضل الله عليه وقال وهو في سكرة غروره.

«إنما أوتيته على علم عندي».

يقول: هذا المال الكثير، وهذه النعمة العظيمة جاءت من معرفتي وذكائي ودرايتي ومقدرتي وليس لأحد فضل في وجودها.

وهو بهذا القول يتناسى خالقه المنعم المتفضِّل، وهنا تكون لحظة الانحدار من الإنسان إلى ما هو أقلُّ من مستوى الحيوان.

إلى أين يتجه هذا الغيُّ المترف المكابر؟ وإلى أيِّ نهاية تسوقه مكابرته؟؟

من هذا المكابر الذي قال هذه الكلمة العظيمة جاحداً بها فضل ربِّه؟

هو: قارون بن نبصهر بن قاهت.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى وكان اسم موسى عليه السلام: موسى بن عمران بن قاهت.

وقال بعضهم: إنه عمٌّ موسى، ولكن ابن كثير نقل عن ابن جرير الطبري في تفسيره للآيات الخاصة بقارون في سورة القصص قوله: وأكثر أهل العلم على أن قارون ابن عم موسى، وقال قتادة بن دعامة فيما نقله عنه ابن كثير في التفسير: كان قارون يسمَّى «المنوِّر» لحسن صوته حينما يتلو التوراة.

قال الرواة: مازال المال والثراء بقارون حتى نافق، وانحرف عن الطريق المستقيم، وهجر التوراة، وزاد في طول ثيابه شبراً يجرُّها على الأرض ترفعاً عن قومه وكبراً وبطراً.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بقصة قارون في آيات بينات في سورة القصص، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها أنه كان من قوم موسى فبغى عليهم.

وامتن الله عليه بما أنعم عليه من النعمة

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76].

قال المفسرون: الكنوز هي الأموال الكثيرة التي امتلأت بها الخزائن حتى أصبحت المفاتيح ثقيلة على الفئام من الناس لكثرتها.

قال خيثمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من الجلود، كلُّ مفتاح منها مثل الإصبع، لكلِّ خزانة مفتاح خاصٌّ بها، فإذا ركب حملت مفاتيحه على ستين بغلاً أغرَّ محجَّلا.

ونحن نقول: مهما كان العدد الذي بلغته تلك المفاتيح، ومهما كان عدد الخزائن والبغال التي تحملها، فإن العبرة بهذه الثروة الطائلة ابتلي بها قارون.

الثروة التي صرفته عن الإيمان، وتلاوة التوراة، وأبعدته عن ابن عمه موسى عليه السلام، كما أبعدت السَّامريَّ الذي صنع العجل ودعا إلى عبادته في غياب موسى.

والذي يبدو من أقوال المفسرين، وهو ما تدل عليه الآيات القرآنية أن قارون قد جاوز الحدَّ في التطاول والكبرياء والاحتقار الناس مما جعل قومه كلَّهم كما دلَّت على ذلك الآية:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ [القصص: 76].

ومعنى ذلك أن الرجل قد بلغ من المكابرة والجحود مبلغاً لم يجد معه أحداً من قومه يؤيده، ولذلك وجهوا إليه النصيحة. «لاتفرح».

أي: لاتبطر بما أنت فيه من الأموال، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحب الفرحين «أصحاب الأشر والبطر والاغترار» الذين لا يشكرون الله سبحانه وتعالى على ما آتاهم من فضله ونعمته.

لقد كانت نصيحة قوم قارون له شاملة لمعان كثيرة، دالّةً على حرصهم على مصلحته، وإشفاقهم عليه من النهاية السيئة التي ينتهي إليها المكابرون الجاحدون فيما جُرِّبَ فيه سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون.

لقد دعوه إلى التوسط في الأمر، وعدم الإفراط أو التفريط:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77].

نصيحة واضحة، غالية جداً عند من يقدِّر ثمن النصائح والمواعظ، أما المكابر فإنه يصرف نظره عنها محتقراً لها ولأصحابها.

هذه النصيحة البليغة ذهبت أدراج الرياح، ولم يصل منها إلى قلب قارون حرف واحد.

ما لدليل على ذلك؟

الدليل قوله الذي دلَّ على غفلته ومكابرته وغروره: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78].

قال قولته هذه مكابراً، بعيداً عن الإحساس بفضل الله ونعمته عليه.

إن معنى كلامه هذا أنه ينفي افتقاره إلى الله ولا يذكر ما نصحه به قومه، ويعتقد أنه يستحق هذه النعمة لما له من الفضل، وكأنه يقول:

إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولأنه يحبني، ويعلم أنني أهل لهذه النعمة.

وورد عند بعض المفسرين أن قارون أراد بكلامه هذا أنه كان يعالج علم الكيمياء وكان به عارفاً، وقد أنكر ابن كثير هذا القول وأخبر أنه بعيد عن الصواب لعدم ثبوته.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله فتموَّل بسببه ونال ما نال من الثَّراء، ويؤكد المفسرون أن المعنى الأول هو الأصح، فالرجل اغترَّ بنفسه حتى رأى أنه مستحق للنعمة كما قال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قال قارون: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال.

منطق مقلوب، ورؤية قاصر، وتفكير معطَّل، وبصيرة عمياء ولذلك استمر قارون في مكابرته، كما استمر قبله فرعون، فماذا كانت النتيجة؟؟

خرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمُّل باهر، ومظهر أدهش الناظرين، وحرَّك أشجان الفقراء والمساكين.

مراكب فارهة.

ملابس غالية الثمن برَّاقة الألوان.

بغال وخيول نادرة.

خدم وحشم.

إنه موكب «الغفلة» بلا شك.

هنا انبهر الناس، وتطلَّعت نفوس الضعفاء الذين أعجبهم بريق المظهر، وتاقت نفوسهم إلى شيء من نعيم الدنيا حتى قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79] أمنيَّةٌ صريحة، وحلم واضح، وتفسير خاطىء لهذا المظهر البرَّاق. ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79].

بل هو أسوأ حظ لإنسان خرج عن دائرة الخضوع لله رب العالمين، هنا تحرك أهل العلم، وقد رأوا هذا المظهر القارونيَّ المثير، وسمعوا تلك الأمنيَّةَ التي تمنَّاها الناس، وقالوا واعظين:

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 80].

وهذا توجيه إلى ما عند الله من الخير العظيم لعباده المؤمنين الذين سيرون في الجنة ـ إن شاء الله ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

موقف مثير تتكون لوحته العجيبة من ثلاثة مناظر:

1- قارون في مظهره وثرائه ومراكبه وخدمه وحشمه.

2- الميالون إلى مظاهر الدنيا من البشر.

3- العلماء الذين يعرفون أن الدنيا متاع زائل لا قيمة له.

فهي لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

أين يقع الحق من هذه اللوحة العجيبة؟

لا مجال للإجابة المفصلة عن هذا السؤال، ولا مكان للكلام والمناقشة والجدال، ولا موقع للاستشهاد والاستدلال عجباً، فأين نجد الجواب؟!

الجواب مباشر لايحتاج إلى تفكير.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: 81].

انتهى في لحظة واحدة كل شيء في حياة قارون.

انتهى المال، والجاه، والدار الكبيرة والمفاتيح الثقيلة، والخزائن المليئة بالأموال الطائلة، وقارون الذي يجرُّ ثوبه وراءه شبراً بطراً وخيلاءَ.

كل ذلك انتهى، إذِ ابتلعت الأرض بأمرٍ من خالقها قارون وما معه، والناس ينظرون، ولايكادون يصدقون ما تراه عيونهم.

هنا استيقظ الغافل، وتعلم الجاهل، واستغفر المتجاوز للحد، واطمأنَّ الخائف الوجل، وهدأت نفس الطامع.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: 82].

وقد ذكر بعض الرواة أنَّ هلاك قارون كان بسبب دعوة عليه من نبي الله موسى عليه السلام، وذكر لذلك أسباباً:

قال ابن عباس: إن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالاً على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني اسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله فتقول:

يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت لموسى ذلك أرعد من الفَرَق والخوف، وأقبل عليها بعدما صلى ركعتين ثم قال لها: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ماقلت؟

فقالت: أمَّا إذ نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول لك ما قلت، وأنا استغفر الله وأتوب إليه.

عند ذلك خرَّ موسى ساجداً، وسأل الله أن يستجيب له في قارون، فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه.

فأمر موسى ـ بإذن الله ـ الأرض أن تبتلع قارون وداره فكان ذلك.

ورويت القصة بوجه آخر:

قيل: إنَّ قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمرَّ في مظهره ذلك على نبي الله موسى عليه السلام، وهو يذكر الناس بأيام الله ويعظهم، فلما رأى الناس قارون ومظهره التفتوا إليه، يتعجبون مما هو فيه فدعاه موسى وقال له: ما حملك على ماصنعت؟

فقال في غطرسة وكبرياء:

يا موسى إن كنت قد فضلت عليَّ بالنبوة، فلقد فضِّلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن ولتخرجن، فلتدعون عليَّ وأدعو عليك.

فخرج موسى وخرج قارون معه و هو في خدمه وحشمه.

فقال موسى: تدعو أم أدعو أنا؟

قال قارون: بل أنا أدعو، فدعا فلم يستجب له.

ثم دعا موسى عليه السلام قائلاً: اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم.

فأوحى الله إليه أني قد فعلت.

فقال موسى: يا أرض خذيهم؟، فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم؛ ثم قال موسى: أقبلي بكنوزهم وأموالهم.

قال: فأقبلت بها حتى رآها الناس.

ثم أشار موسى بيده فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة.

نهاية يستحقها المكابر، حدثت بالصورة التي قدَّرها الله سبحانه وتعالى، وإني لأعجب ـ أيها الأحبة ـ من المكابرة كيف تطغى على عقل صاحبها، فيصبح بلا تفكير.

إن كل موقف من مواقف قصة قارون يدل على أنه كان معطل التفكير تماماً، وهذه سمة أهل المكابرة.

لو لم يكن أعمى البصيرة لما واجه موسى بهذه المكابرة مع أنه يعلم بنبوة موسى وبما أوتي من المعجزات.

حتى حينما اتفق هو موسى على الدعاء.

دعا قارون فلم تستجب دعوته، ألم يكن الأولى به هنا أن يراجع نفسه وأن يتوب إلى رشده، وأن يطلب من موسى عليه السلام عدم الدعاء عليه؟؟

بلى هذا هو الأولى عند المتحرّرين من مكابرتهم وغرورهم.

أما قارون فقد كان مغموساً في مكابرته حتى إذا تجاوزت به الحدَّ، انغمس في الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

اللهم اكفنا شرّ أنفسنا الأمّارة بالسوء.

المكابر التاسع
«الدم الذي يفور»

كان ملكاً ذا مكانة كبيرةٍ في قومه، سخر الله له من المال والجاه ما جعله من أكبر الملوك الذين ملكوا دمشق وما حولها، إنه: «هداد بن هداد».

الملك الذي عاش في نعمة ورخاء، معاصراً لنبي الله يحيى عليه السلام، النبي المؤمن الزاهد المتواضع الذي كان معروفاً بدماثة خلقه، ولين جانبه، وكان محطُّ أنظار الناس، ومكان تقديرهم وحبهم.

قال أبو إدريس الخولاني فيما رواه ابن كثير في تاريخه:

ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه لا يعرفون جواباً قال: إنه يحيى بن زكريا عليهما السلام، كان أطيب الناس طعاماً.

وربما أكل مع الوحش من البريَّة خشية أن يصيب مع أحد من الناس طعاماً فيه شيء من الحرام.

لقد عاصر ذلك الملك الذي يملك من حطام الدنيا ما كان يعيش به في نعمة ورخاء، يحيى عليه السلام الذي كان يهرب من الدنيا، ويفرُّ من بريقها كما يفرّ الإنسان من الأسد.

عاش يحيى في عهد ذلك الملك «هداد» عابداً زاهداً واعظاً للناس، مرشداً إلى الخير، مخلصاً لربِّه، صادقاً في دعوته، يحيى كان في روضة من الزُّهد والهدى وعبادة الله.

والملك كان في ميادين فسيحة من الثراء والجاه، والمكانة في قومه والقوة والمنعة فيهم، لايرى مظهراً من مظاهر النعمة والثراء إلا ويسارع إليه، جالباً له، مستمتعاً به.

ومشكلة كثير من البشر أنهم إذا أطلقوا لمتع الحياة العنان، تعلَّقوا بها، وغلبت عليهم شهوات النفس حتى يستهينوا بالناس ويظلموا ويقتلوا في سبيلها.

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق: 6-7].

ولا يقع في هذه المشكلة الخطيرة إلا الملتحقون بالمدرسة الشيطانية التي تعلِّم طلاَّبَها المكابرة والغرور، والانحراف عن الطريق المستقيم.

أحب الملك الدمشقي «هدَّاد» إحدى محارمه، وتعلَّق بها قلبه ويقال: إنها ابنة أخيه، اسمها «أريل» ملكة صيدا، فأراد الزواج بها مع علمه بحرمة ذلك، فدعا إليه يحيى عليه السلام وطلب منه أن يفتيه بهذا الزواج، فنهاه يحيى عن ذلك وأخبره أن زواجه منها لا يحلُّ، فتوقف الملك في الأمر، وغضبت المرأة التي كانت تتوق إلى ما يتوق إليه الملك.

وبعد زمن من تلاعب الشيطان بنفسيهما، وفي سكرة من سكرات النفس الأمَّارة بالسوء، وغفلة من غفلات الملك والجاه والسلطان، عزم الملك على الزواج من تلك المرأة، مبيحاً لنفسه ما حرَّمَ الله عليه.

تزوجها زواجاً محرَّماً، متناسياً وجود يحيى عليه السلام، متجاهلاً ما أفتاه به من حرمة هذا الزواج.

كانت المرأة أشدَّ حنقاً على يحيى من الملك، لقد أزمعت في نفسها أن تنتقم منه، وتبيَّن للناس من حولها أنها قد بلغت حدَّاً من الغطرسة والمكابرة لا يسمح لها باستماع موعظة أو الاستجابة لدعوة.

في لحظة من لحظات المتعة بينها وبين الملك، بالغت في إمتاعه والتلطُّف معه، حتى إذا شعرت أنها قد استمكنت منه طلبته دم يحيى عليه السلام.

لم يكن ضمير الملك حيَّاً في ذلك الوقت، فوهبها دم هذا النبي الزاهد المؤمن الصادق وقال:

هو لك.

سارعت المرأة الحانقة إلى تنفيذ جريمتها فبعثت إلى يحيى من قتله وجاء إليها برأسه ـ عليه السلام ـ ودمه في طستٍ إلى عندها.

مكابرة واجتراء على الله عز وجل من أجل متعة زائلة وشهوة عابرة.

تقول الروايات: إن بعض الناصحين حاولوا أن يثنوا الملك والملكة عن هذا العمل الفظيع، ولربما ذكروا لهم النهايات السيئة التي انتهى إليها من تجرؤوا على أنبياء الله ورسله عليهم السلام، فالشواهد عند بني إسرائيل كثيرة، لأنهم كانوا يستهينون بقتل الأنبياء:

﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 181].

ولكنَّ النصائح لا تستطيع أن تخترق حاجز المكابرة الذي يحول بين الإنسان وبين رؤية الحق والصواب.

ماذا جرى بعد قتل يحيى عليه السلام؟

قيل: إنها هلكت من فورها وساعتها، وخسف الله بها الأرض عقاباً عاجلاً على ما فعلت.

وهنالك وجه آخر رويت به هذه القصة ذكره الحافظ ابن عساكر في «المستقصى في فضائل الأقصى» قال:

كان هداد بن هداد ملك دمشق قد هوي ملكة صيدا أريل فتزوجها واستأنس به: ثم إنه طلَّقها ثلاثاً فندم على ذلك، وكان حريصاً على مراجعتها وهي كذلك.

فاستفتى يحيى بن زكريا عليه السلام فقال له:

لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك.

فحقدت المرأة على يحيى، ووجد الملك في نفسه عليه، وبينما هي ذات يوم مع الملك في حالة من الرِّضا، ذكَّرته بيحيى الذي أحرج الملك، ولم يقدِّر مكانته، وأفتاه بخلاف ما يريدانِ ولا زالت به حتى انبعث في نفسه غيظ على يحيى، فطلبت منه رأس يحيى، فبعث إليه من رجاله من يأتيه برأسه؛ قالوا: فلما جاء رسول الملك وجد يحيى قائماً يصلي في مسجد «جيرون» فقتله، وحمل رأسه في صينية، فأخذت المرأة الطبق وجاءت به إلى أمها، فرحة بما فعلت، قالوا فلما وقفت

أمام أمها، خسف الله بها إلى قدميها، ثم إلى حقويها وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السيَّاف أن يقطع رأسها لتتسلَّى به، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، أما الملك فقد أصابه الذُّعر لمَّا بلغه الخبر ولكنه لم يلجأ إلى التوبة والاستغفار، ولم يجأر إلى ربه بالندم، وإنما أصابه الذهول.

ذهول ماذا؟

ذهول المفاجأة التي قصمت ظهره، وعكرت صفوه، وأفقدته كل معنى من معاني لذَّة الحياة ومتعتها.

ولولا المكابرة التي دفعته إلى الأمر بارتكاب الجريمة، والاستهانة بدم النبي يحيى عليه السلام، لما وقع ما وقع منذ البداية.

انتهى كلُّ شيء أيها الملك المكابر، وأيتها الملكة الحاقدة.

وكان قتل يحيى بداية الشقاء لأولئك القوم إذ وقعوا بعدها في الذلّ والفناء.

يقول الرواة:

إنَّ دم يحيى عليه السلام ظلَّ يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال:

أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن.

وكان الملك بختنصر قد سُلِّطَ على بني إسرائيل وقتل منهم مقتلة عظيمة بسبب مكابرتهم، وغرورهم وإصرارهم على عصيان الأنبياء وقتلهم والاساءة إليهم.

مكابرة الإنسان إنغلاق خطير في نفسه، وقسوة عظيمة في قلبه تجعله غافلاً عن الحق، غارقاً في سكرة طغيانه وشهوته وكبريائه لا يصحو إلا بعد فوات الأوان.

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه :

قدم بختنصر من العراق إلى دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه، فأخبروه بقصته، فقتل عدداً كبيراً من القوم حتى سكن الدم.

وروي عن زيد بن واقد قال:

رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب، مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير، كأنَّما قتل في تلك الساعة .

أرأيتم كيف تبدو لنا الجريمة النكراء حينما نراها عن بعد.

وكيف نشعر بفظاعتها ونحن نقرأ عنها؟

أين كان غائباً هذا الإحساس بفظاعة هذه الجريمة عن نفس الملك «هداد» وزوجته «أريل» ملكة صيدا؟ لم يكن لهذا الإحساس عندهما

وجود في تلك اللحظة، لأن الغرور والمكابرة والغفلة عن استيعاب نصيحة الناصحين، ووعظ الواعظين قد سدَّت عليهم منافذ البصيرة، فما عادوا يرون صورة الحق الواضحة.

هنا تضخَّمت «الأنا» وتسلَّطت الشهوة، واستمكنت الرَّغبة، فكان ما كان من الجرم الكبير، والاعتداء الأثيم.

نهاية مؤلمة في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة.

اللهم إننا نسألك السلامة

المكابر العاشر
«ما كان ليمتنع مني»

كان أرياط الحبشي ملكاً على اليمن بعد أن هزم ملكها ذا نواس، وقد عاش في سلطانه على اليمن سنينَ طويلة، وأحكم قبضته على البلاد وهيمن على العباد بما له من قوة، وبما معه من سلاح وجيشٍ جاء به من الحبشة مرسلاً من ملكها النجاشي.

كانت شخصية أرياط قويّةً، فهو من الشجعان المعدودين، وكانت له هيبته عند الناس.

طال به الأمد في ملكه، وجنح إلى الجور، والميل إلى أهله ورجاله وخاصته، والإجحاف بحقوق عامة الناس وكثير من الجند من أهل الحبشة الذين كانوا معه.

كان في جيشه رجل شجاع جريء، له من الصفات الجسدية ما يناقض صفات أرياط.

فقد كان أرياط رجلاً.

فقد كان أرياط رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً ذا مهابة.

أما ذلك الجندي الشجاع فقد كان رجلاً قصيراً لحيماً.

لقد مال الهوى بأرياط، وناله الطغيان الذي أصابه بالغرور وبدا عليه داء المكابرة الذي يعمي من يصاب به عن رؤية الحقِّ والخير.

وما دام قد دخل من بوابة «المكابرة» إلى كهوف الغرور والكبرياء والظلم، فقد حكم على نفسه بالنهاية السيئة التي تنتظر المكابرين.

لقد ملَّ الجند وعامة الناس غرور أرياط وعدم عدله، وتاقوا إلى التخلص منه.

وكان ذلك الجندي القصير اللَّحيم من جنود الحبشة من أكثر الجنود استثقالاً لمكابرة أرياط وتطاوله، وكان مؤهلاً بما لديه من الجرأة والإقدام لمنازعة أرياط ملكه، خاصة وأنه قد رأى ما لدى الناس من كراهيته له.

أعلن منازعته لأرياط، وأصبح الأمر معروفاً لدى الناس.

إنَّ الجندي «أبرهة الحبشي» قد أعلن خروجه على الملك أرياط.

لقد استهان أرياط بهذا الأمر في بدايته، فقد كانت مكابرته قادرةً على تهوين ما لايصح الاستهانة به من الأمور.

ولكنَّ الأمر تفاقم، وانقسم جنود الحبشة إلى قسمين متساويين في القوة والكثرة، أحدهما يناصر أرياط والآخر يناصر أبرهة.

أحسّ الملك أرياط بالخطر، وأدرك بخبرته أن نشوب الحرب بينه وبين أبرهة تعني القضاء على أهل الحبشة، وإنهاء ملكهم في اليمن.

ولكنه ظل بمكابرته يعلن للناس احتقاره لذلك الجندي المارق أبرهة، فهو يستنكف أن يعترف بخطورة الأمر، وهذا هو شأن المكابرين المتغطرسين.

لما طال بأرياط الأمر، تبيَّن له أن أبرهة ومن معه يكوِّنون قوةً قادرة على إحداث شيء.

وبينما كان في صراع مع غروره وكبريائه، جاءه رسول من أبرهة بالرسالة التالية:

إنك يا أرياط لا تصنع بحربك معي إلا ما يمكن أن يفني الحبشة وفي ذلك فناء للجميع، وضياع لمملكةٍ عظيمة، وإني أرى أن تبارزني فأيّنا أصاب صاحبه، انصرف إليه جنده.

وكأنما كان في هذا القول إنقاذ لأرياط من حيرته، فأرسل إلى أبرهة: أنصفت فيما قلت فهيَّا للخروج.

التقى الرجلان، وكان الفرقُ بالقوة الجسدية بينهما واضحاً، فأرياطُ كان أعظم جسماً، وأشد قوة.

التقى الرجلان، وكان وراء أبرهة غلام له يقال له: «عتودة» يحمي ظهره.

وكان أرياط معتدًّا بنفسه وقوَّة جسده، وبكونه ملكاً ذا مهابة.

رفع أرياط الحربة في مثل لمح البصر فضرب بها أبرهة يريد «رأسه». ولكنَّ أبرهة حاص عنها قليلاً فضربت على جبهته فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته، فمن ذلك الوقت أطلقوا عليه:

«أبرهة الأشرم».

ولما رأى «عتودة» ما حدث حمل على أرياط من خلف أبرهة، فقتله.

التحق ـ بعد ذلك ـ جند أرياط بأبرهة، فاجتمعت عليه الحبشة في اليمن، وحمل أبرهة دِية أرياط.

بلغ خبر ما حدث ملك الحبشة «النجاشي» فغضب غضباً شديداً على أبرهة وقال: عدا على أميري، فقتله بغير أمري، ثم حلف ألاَّ يترك أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزَّ ناصيته وينكِّل به.

لما سمع بذلك أبرهة حلق رأسه، وملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشيّ، وكتب إليه: أيها الملك، إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك، وكُلٌّ طاعته لك، إلاَّ أني كنتُ أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها، وأسوس منه، وقد حلقتُ رأسي كله، حين بلغني قسم الملك، وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه فيكون قد برّ بقسمه.

أعجب النجاشيَّ ما صنع أبرهة، فرضي عنه، وثبَّته في مكانه.

لقد ساقت المكابرة والغرور أرياط إلى هذه النهاية، وكان لأبرهة الدور الأكبر في مواجهة أرياط، والقضاء عليه رافضاً لمكابرته وغروره.

فماذا حدث لأبرهة بعد ذلك؟

يبدو أن بعد النفس البشرية عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وعن منهج الله في العدل بين عباده، هو الذي ينسي الإنسان طبيعته، وضعفه وحاجته إلى ربه، ومن هنا يصبح ضحيَّة للمكابرة والغرور ناسياً ما يرى وما يسمع من المواعظ والعبر.

أبرهة باشر بنفسه مواجهة أرياط المكابر المغرور، وشارك بنفسه في رسم تلك النهاية الحزينة لأرياط فكان الأولى به أن يكون أبعد الناس عن السبب الذي أطاح بسلفه أرياط.

ولكنَّ في مواقع الوجاهة والسلطان والثراء من عوامل الإغراء، والإلهاء ما يبعد الإنسان عن سلوك طريق القصد والعدل والإنصاف، وكأنما هنالك سحرٌ لا يقاوم يغير مزاج الإنسان حينما يعتلي موقع الصدارةِ والحكم.

ورث أبرهة ملكاً عظيماً في اليمن، وأصبح ملكاً على مملكة كبيرة، لها جيشها القوي، وثروتها الطائلة، ويبدو أنَّ هذا الموقع الخطير قد أنسى أبرهة أسباب هزيمة أرياط.

بدأ التَّطاول، والغطرسة، والشعور بالعظمة، وبدأ الانجراف مع سكرة الجاه والمُلْكِ، والمال، والسيطرة، وبدأت الرغبة الجامحة في الهيمنة على جزيرة العرب كلِّها بما في ذلك مكة المكرمة، والمسجد الحرام، والكعبة المشرَّفة التي تهوي إليها أفئدة الناس.

كان أبرهة نصرانياً، ولهذا بدأ ـ في سكرة المكابرة ـ يفكر في بناء كنيسة كبيرة يتحوَّل إليها الناس، وتصبح قبلة الأرض كلها، بدلاً من الكعبة.

هنا، وقفت المكابرة حاجزاً كعادتها أمام بصيرة أبرهة.

إنَّ الجدير به ـ وهو النصراني ـ أن يعرف أن اختيار مكة، والكعبة إنما هو اختيار إلهي، لا علاقة له بالبشر، ولا شك أنه يعرف ذلك، فالتوراة والإنجيل يحملان من الإشارة إلى ذلك ما لا عذر معه لجاهل.

إنَّ المسألة ـ لو وعى أبرهة ـ أكبر من ملكه، وملك النجاشي، وملك جميع ملوك الأرض وسلاطينها.

هذه هي الحقيقة.

ولكنَّ الحقيقة غابت عن ذهن ملك مكابرٍ مغرور.

اتخذ أبرهة قراره الحاسم ببناء كنيسة: «القُلَّيس»

في مدينة صنعاء وكتب إلى النجاشي:

إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن أحدٌ مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجَّ العرب.

بدأ البناء، وبدأ إذلال أبرهة لأهل اليمن، إذ سخَّرهم بالقوة لبنائها.

تقول بعض الروايات: كان من يتأخر من العاملين في البناء عن عمله حتى تطلع الشمس يعاقب بقطع يده.

وأمر بأن ينقل الرخام والأحجار والأمتعة العظيمة من قصر بلقيس إلى الكنيسة.

كنيسة ضخمة تقام، وصلبان من ا لذهب والفضة تركَّب فيها، ومنابر من عاج وابنوس تنصب في زواياها وارتفاع عظيم، واتساع باهر.

لقد تم البناء، وأصبحت «القليس» معلماً بارزاً في مدينة صنعاء.

أين التواضع؟ أين العدل والإنصاف؟ أين البصيرة التي ترى الحقّ؟ أين الاتعاظ بمن سبق؟

لا مكان هنا إلا للمكابرة والغرور.

انتشر في جزيرة العرب خبر هذه الكنيسة، وخبر تلك الرسالة التي بعث بها أبرهة إلى النجاشي مفصحاً فيها عن نيِّته من بناء هذه الكنيسة.

ثارت الحميَّة في نفوس العرب، وأحسُّوا بأنهم أمام مشكلة كبيرة، وملك عنيد، سرقته المكابرة من عقله وحكمته، ناسياً أنها هي التي دعته إلى قتل الملك أرياط.

تحرَّك رجل كناني من العرب، بعد أن شُحن بالغيرة على الكعبة، وبالغيظ مما يصنع أبرهة.

تسلّل الكناني إلى الكنيسة العظيمة «القلَّيس» وانزوى منها في مكان لا يراه فيه أحد.

«وأحدث فيها».

أي قضى حاجته فيها عامداً متعمّداً.

ثم هرب دون أن يعلم به أحد.

لما علم أبرهة بما حدث، وعلم أن السبب في ذلك غيرة الرجل على الكعبة وبيت الله الحرام، خرج من طور عقله، وأوغل في سراديب وهمه وقال:

«والله لأسيرنَّ إلى البيت الحرام حتى أهدمه».

أين أنت أيها الملك من الحقيقة؟

ما لك لا ترى إلاّ وهمك؟.

لماذا لا تترك لوعيك مجالاً حتى ينقذك من هذا؟

أسئلة تغوص في أوحال عميقة من المكابرة والغرور والحقد الذي يعمي الأبصار والبصائر.

لربَّما سمع أبرهة من بعض العقلاء نصيحة بألاَّ يفعل ما نوى، وألاَّ ينفِّذ ما عزم عليه، ولربَّما بيَّن له من نصحه خطورة الأمر، ولكنَّه قد أصبح في دائرة مغلقة من مكابرته، فأنَّى لنصحية أن تصل إليه.

لمعت في ذهن أبرهة فكرة «الفيل»؛ فالعرب لا يعرفون الفيلة في بلادهم، فعزم على أن يستخدم الفيلة في إنجاز هذه المهمة، واختار فيلاً ضخماً، قيل إن اسمه «محمود» ليكون قائداً لهذه الحملة «الأبرهية» الغاشمة.

كان جيشه كبيراً، وقوَّته عظيمة، ولهذا لم يستطع أحدٌ أن يعترض طريقة؛ حتى الذين حاولوا مقاومته لم ينجحوا في مواجهة هذا الجيش العرمرم.

خرج ذو نفر، وهو من أشراف أهل اليمن بمن استجاب له من العرب، فقاتل أبرهة لصدِّه عن قصده، ولكنَّ المعركة حسمت بسرعة فائقة لمصلحة أبرهة.

وخرج نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتلوا أبرهة، ولكنهم سرعان ما انهزموا.

وسار الجيش الكبير سالكاً طريقه الميسور إلى مكة المكرمة، طريقاً سهلاً لاتعترضه عقبات صعبة، ولعل ذلك قد زاد أبرهة مكابرة وغروراً، وإحساساً بالعظمة، وانخداعاً بالقوة.

وكأني بأحلامه السوداء تخيِّم على ذهنه، يرى من خلالها نفسه وقد جلس على كرسيه في ساحة الحرم أمام حطام الكعبة المشرفة.

هكذا تغلق المكابرة الأذهان، وتغطِّي العقول.

لقد وجد أبرهة من الأدلاَّء من سهَّل عليه الطريق، وأكمل «أبو رغال» الثقفي المهمَّة حتى أوصل أبرهة وجيشه إلى وادي «الملغمَّس» قريباً من مكة.

وفي هذا الوادي مات «أبو رغال»، وظلَّ قبره يرجم زمناً من قبل العرب.

أحسَّ أبرهة وقوَّاد جيشه بالزَّهو والكبرياء، إنهم الآن على مشارف مكة، إنهم يشتمُّون رائحة النَّصر وإنجاز المهمة، من شجرة هذا الخضوع الذي رأوه من قبائل العرب، ياله من وهم كبير!

بعث أبرهة بأحد قواد جيشه من الحبشة وهو «الأسود بن مقصود» ومعه رجالٌ على الخيل، وأمرهم بأخذ أموال تهامة من قريش وغيرهم.

يقول الرواة: لقد همَّت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بمكة من قبائل العرب بالمواجهة والقتال، ولكنهم عرفوا أنَّهم لا طاقة لهم بأبرهة وجيشه فتركوا ذلك.

لقد شعر أبرهة بأن ما يريد قد تحقَّق، فلم يبق بينه وبين إنجاز مهمته إلا وقت قصير، ولا بأس أن يستخدم بعض الطرق «الدبلوماسية» مع أهل مكة.

بعث إليهم حناطة الحميري وقال له: سل عن سيِّد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إنَّ الملك يقول:

إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحربٍ فلا حاجة لي بدمائكم.

ثم قال لحناطة: إن رأيت سيِّدهم لا يريد حربي، فأتني به.

انطلق رسول أبرهة حتى وصل إلى سيد مكة «عبد المطلب بن هاشم» وأبلغه برسالة الملك.

ماذا قال عبد المطلب؟

قال: والله ما نريد حربه

ومالنا بذلك من طاقة

هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ

فإن يمنعه الله منه فهو حرمه وبيته.

وإن يخلِّ الله بين أبرهة وبين بيته، فوالله ما عندنا دفع عنه.

ثم انطلق عبد المطلب مع حناطة إلى أبرهة.

وحينما وصل إلى معسكره سأل عن «ذي نفر» وكان أسيراً بعد أن هزمه أبرهة، وكان صديقاً لعبد المطلب.

ولقي «ذا نفر» وسأله: هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟

قال ذو نفر:

ما غناءُ رجل أسير عند ملك ينتظر حكمه فيه؟

ولكني أعرف أنيساً سائس الفيل، فلعله ينفعك؟

فأرسل ذو نفر إلى أنيس من قال له:

إنَّ عبد المطلب سيِّد قريش، وصاحب عين مكة، يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤس الجبال، قد أصاب له الملك مئتي بعير، فاستأذن له وانفعه عند الملك.

وصلت الصورة إلى أبرهة، فتهيأ نفسياً لمقابلة سيِّد قريش وجهز نفسه لمناقشة سياسية لها ما وراءها.

دخل عبد المطلب على أبرهة وهو جالس على كرسيه، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رأه أبرهة أجلّه وأكرمه، ونزل عن سريره فجلس معه على البساط.

قال أبرهة ـ عن طريق الترجمان:

ما حاجتك أيها السيِّد؟

لكأنني بأبرهة ينتظر الجواب بنفس تخشى أن تسمع ما لا يعجبها، وما يمكن أن يعكِّر صفاء هذه المهمة الكبيرة التي تيسَّرت طرقها حتى وصلت إلى هذا المكان.

قال عبد المطلب:

حاجتي أن يردَّ الملك لي مائتي بعير أصابها

ما هذا؟ أهذا سيِّد قومه؟ لقد كان كلام عبد المطلب صدمةً لأبرهة، بالرغم من أنَّه سهَّل عليه المهمة.

قال لعبد المطلب:

لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمتني، أتكلمني في مائتي بعير لك؟ وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟

كلام واضح، وهو كلام معقول في صورته الظاهرة، ولربما كانت نفس أبرهة ـ في هذه اللحظة ـ قد زادت غروراً ومكابرة، إنه الآن في موقع بعيد جداً عن سلامة التفكير في خطورة الهدف الذي جاء من أجله، إنه غافل عن نقطة في غاية الأهمية:

ألا وهي أنه بخطوته هذه يتجاوز حدَّه البشري، لأن كلام عبد المطلب صحيح، فما دام بيتاً لله، فالله هو الذي سيحميه .

قال له عبد المطلب ـ بهدوء وثقة ـ

إني أنا ربُّ الإبل.

وإنَّ للبيت ربَّاً سيمنعه.

قال أبرهة ـ وقد تمكَّنَ منه الغرور حتى أنساه نفسه: ماكان هذا البيت ليمتنع مني.

قال عبد المطلب: أنت وذاك.

ثم أمر أبرهة برد إبله إليه.

يالها من مكابرة تغلق ذهن صاحبها !

إنَّ أبرهة في هذه اللحظة غارق حتى أذنيه في مستنقع المكابرة والغرور.

لقد نسي المسكين أنه في مجلسه هذا قد حدَّد نهايته السيئة، ورسم معالم هزيمته الكبيرة.

لقد نسي المسكين أنَّ عبد المطلب قد سدَّد إليه سهماً قاتلاً حين قال له:

«أنت وذاك»

لو كان لأبرهة نصيب من وعيه وسلامة تفكيره في تلك اللحظة لأدرك خطورة الموقف، ولأحس بالمعاني العميقة في كلمة «أنت وذاك».

إنَّه نصراني يعرف من خلال ديانته معنى أن يستهينَ الإنسان مهما كان قوياً بمواجهة ربِّ العالمين.

ولكنه الآن مدفونٌ في حفرة المكابرة

وأنى له أن يرى الحقَّ واضحاً؟

كان المنتظر من رجل من أهل الكتاب حينما قال عبد المطلب: «أنا رب الإبل وإنَّ للبيت ربّاً سيمنعه» أن يقشعر بدنه رهبةً من هذه الكلمة، وأن يرتفع عنده مقام عبد المطلب بن هاشم، لأنه ـ هنا ـ يقول كلاماً عظيماً، ويتحدَّث عن حقيقة كبرى.

ولكن أبرهة كان في شغل بمكابرته عن ذلك كلِّه.

انصرف عبد المطلب إلى مكة، وجمع أهلها وأخبرهم بما حدث وأمرهم بالتحرُّز في رؤوس الجبال حتى يقضي الله ما يشاء.

هل اكتفى بذلك؟

كلاَّ، لقد توجه إلى حلقه باب الكعبة وأمسك بها قائماً، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب:

لاهُمَّ إنَّ العبْدَ يمنعُ رَحْلَهُ فامنَعْ رِحَالَكْ.

لا يغلبَنَّ صليبُهُمْ ومِحالُهُمْ غَدْواً مِحالَكْ.

إن كنتَ تارِكَهُمْ وقبلتَنا فأَمْرٌ ما بدَا لَكْ.

هنا ارتقت الأرواح ـ برغم ما هم فيه من الشرك ـ إلى مقام الاستنصار بالله وحده.

لولا ظلام الصَّليب الذي شُنِقَتْ عليه عقيدةُ النّصارى الصحيحةُ، وعُلِّق عليه تحريفُهم لدينهم.

ولولا مكابرة أبرهة، لكان هو الأولى وهو من أهل الكتاب، وأهل مكة من المشركين، أن يستشعر هذه المعانيَ الروحيةَ الساميةَ.

ماذا جرى بعد هذا؟

حرَّك الغرور جيش أبرهة، ووجَّه سائس الفيل الضخم فيله صوب البيت الحرام، وهنا حدثت المعجزة.

برك الفيل على الأرض كما يبرك البعير، مع أنَّ الفيلة لاتبرك.

لقد تحوَّل الموقف في لحظة واحدة، وتعطَّل الجيش الكبير وراء ذلك الفيل الذي يأبى أن يخطو خطوة واحدة في اتجاه الكعبة، بينما ينطلق إذا وجَّهوه إلى جهة أخرى.

مقام عظيم، وموعظة كبيرة، كانت جديرة بأن تدفع «أبرهة» مباشرة إلى رفع يديه إلى السماء وطلب المغفرة والصَّفح من ربِّ البيت.

ولكنَّ ذلك محالٌ مع سيطرة ليل المكابرة والغرور.

لقد كانت أحداث المشهد سريعة جداً.

الفيل لم يتحرَّك.

والناس واجمون.

وأبرهة يغلي من الغضب.

وأهل مكة في رؤوس الجبال ينتظرون ويتساءلون:

ماذا أخَّر جيش أبرهة؟

ما بالهم لم يصلوا إلى المسجد الحرام؟

كل شيء يسير في اتجاهه الصحيح.

شخصت أبصار جيش أبرهة إلى السماء، لقد اقتربت منهم أسراب من طيور عجيبة، إنها تكاد تسدُّ عليهم الفضاء كلَّه.

من أين جاءت هذه الطيور؟

وماذا تريد؟

وما هذه الأشكال الغريبة التي لم يعهدها الناس في طيور قبلها؟

ما بالها كالخطاطيف؟

أسئلة لم تجد جواباً، فقد أطلقت تلك الطيور أحجارها التي كانت تحملها، فقد كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، حجرٌ منها في المنقار، وحجران في الرجلين.

أحجار في حجم الحمص والعدس لا يصيب الحجر منها أحداً إلا أهلكته، ولم تصبهم جميعاً.

لقد خرجوا هاربين لا يلوون على شيء.

أين ملكهم المكابر المغرور أبرهة؟

لقد أصابه حجرٌ في حجم العدسة، وها هو ذا يتساقط جسده قطعة قطعة، حتى وصلوا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، وهناك مات.

أتراه تذكَّر قول عبد المطلب: «وإن للبيت رباً سيمنعه»

وقوله أيضاً «أنت وذاك».

هل تذكر أبرهة وجسمه يتساقط بسبب حجر صغير قوله لعبد المطلب:

«ما كان ليمتنع منِّي»

عجباً للمكابرة كيف توصل أصحابها إلى هذا المستوى من موت الضمير.

ومن أنت يا أبرهة حتى لا يمنع الله سبحانه وتعالى منك بيته الحرام؟

«ما كان ليمتنع مني»

عبارة خارجة عن إطار قدرة الإنسان.

عبارة قاتلة.

إنني أرى أنَّ أبرهة قد قتل نفسه برصاصة حارقة لا ينجو من يصاب بها حينما قال:

«ما كان ليمتنع مني».

لقد مات منتحراً، وهو لايشعر.

وكذلك الطغاة الذين يصيبهم الغرور، يموتون منتحرين مهزومين أذلاَّء، وهم لا يشعرون.

اللهم إنا نعوذ بك من موت الضمير.

المكابر الحادي عشر
«انزعوا عنهم لباسهم»

حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله تجتاله الشياطين وتأخذه إلى عوالمها المظلمة، وكهوفها المعتمة، وتسرقه من يقينه وراحته وهدوئه، وتنأى به عن واحات فطرته السليمة، وخلقه المستقيم، وتفتح أمامه أبواب سراديب الشهوة والشبهة والوهم حتى يصبح تائها عن الحق، غارقاً في اللهو والهوى والوهم، وهنا يتحوّل الإنسان إلى مكابر عنيد، لايرى إلا نفسه، ولا يؤمن إلا برغبته، وتعمى بصيرته عن رؤية الحق المبين، فيضعف في قلبه إيمانه بربه، ويتلاشى في نفسه الخوف من الله، والرَّهبة من عقابه، ويزداد إصراراً على هذا الانحراف حينما تفتح له أبواب لذائذ الحياة ومتعها، فيظن أنه مستحق لذلك، ناسياً ـ بغفلته ووسوسة الشيطان له ـ أن هذا الإمهال من الله استدراج وابتلاء، ودليل على الهلاك.

هكذا كان الملك المكابر «دقيانوس» الذي أطغاه ملكه، وغرَّته أمواله وجيوشه وخدمه وحشمه وتلاعبت به شياطين الجن التي تجد ضالَّتها في أمثاله من الغافلين، وشياطين الإنس التي تجد رغبتها وهواها وتحقيق مصالحها في أمثاله من المكابرين.

«دقيانوس» ملك روماني أضلَّه هواه، فركب رأسه غروراً وعناداً وظلماً وطغياناً، فشاعت في زمانه مظاهر الفساد المتعددة، وظهر أثر انحرافه في ظلمه وعناده، وبعده عن السلوك المستقيم.

أشاع «دقيانوس» في مملكته مظاهر الفساد، وحثَّ على عبادة الأصنام، وتماثيل الطواغيت التي لا تضر ولا تنفع، فكان قدوة الناس في عبادة الأصنام، والذبح لها والسجود عندها، كما كان قائد الناس إلى الفساد الخلقي، فما كان يرضى غير هذا الانحراف منهجاً، وما كان يترك أحداً من الناس يؤمن بربِّه، أو يعلن رفضه لمظاهر المفاسد الموجودة، أو يدعو الناس إلى الإقلاع عن لهوهم ومجونهم وفسادهم، بل كان يعاقب المصلحين، ويقسو عليهم، ولا يسمح لهم بإفساد مظاهر لذائذه التي زيَّنها له الشيطان، والنفس الأمَّارة بالسوء.

وكانت احتفالات الأعياد ميداناً فسيحاً تظهر فيه أصناف الفساد والانحراف والتّرف المتجاوز للحدِّ الذي يقبله العقل، وكانت تلك الاحتفالات تحظى بدعم قوي ماديٍّ ومعنوي من الملك «دقيانوس»، ومن زبانيته الذين يحققون مصالحهم الشخصية من خلال ذلك الفساد العريض.

وكان الصالحون يعانون من هذه الحالة، ولا يقدرون على عمل شيء لما هو معروف من قسوة الملك وجبروته، وشدَّة عقابه لكل مصلح يدعو الناس إلى ترك ما هم عليه من الضلال.

وكان كثير من الصالحين يضطرون إلى مشاركة قومهم في تلك الاحتفالات في الظاهر خوفاً من بطش الملك، أما هم في دواخل نفوسهم فمبغضون لما يشاهدون.

وفي ذات عيد من الأعياد، خرج الملك في مقدمة الناس للاحتفال بالعيد وقد بالغ في مظاهر الفساد مبالغة مجَّها العقلاء من الصالحين وغيرهم، وإن كانوا لا يستطيعون أن ينصحوا أو ينكروا.

وكان من بين الصالحين عدد من الفتيان الذين منَّ الله عليهم بقلوب صالحة، ورؤية سليمة، وبصيرة نافذة ترى الحقَّ حقاً والباطل باطلاً.

نظر أولئك «الفتية» إلى ما يصنع قومهم في ذلك العيد من السجود للأصنام والذبح لها، والرقص والغناء عندها، ورأوا مباركة الملك "دقيانوس" لذلك كله، ومشاركته فيه.

رأوا ذلك فلم تستطع أن تحتمل مشاهدته نفوسهم الزكيَّة، وقلوبهم النقيَّة، وعقولهم الذكيَّة، ولم يستطيعوا أن ينكروا ذلك المنكر لعلمهم ببطش الملك وظلمه وقسوته على المصلحين.

فتيان لا يعرف بعضهم بعضاً، ولكنهم اتفقوا في رفضهم لهذا الفساد.

خرج منهم فتىً متسلِّلاً من بين الجموع، متخفيّاً حتى لا يفطن إليه أحد، منحازاً عن تلك الجموع اللاَّهية، حتى ظهرت له شجرة كبيرة بعيدة عن ساحة الانحراف، وعن صخب الاحتفال وضجيجه، فاتجه إليها، وجلس تحتها مسنداً ظهره إلى جذعها الكبير، ودموع الأسى تترقرق في عينيه الغائمتين، حائرة فيهما لا تستطيع الهطول، وما كاد يجلس حتى رأى فتىً آخر مقبلاً إليه، فجلس معه بعد أن سلَّم عليه، وفي وجهه من علامات الأسى مثل ما في وجه صاحبه.

وبعد لحظة جاء فتىً ثالث، وجلس معهما تحت ظل تلك الشجرة التي يبدو أنها كانت بارزة لافتة للنظر.

ثم تعاقب عدد من الفتيان إلى تلك الشجرة، وفي وجوههم جميعاً ما يدلُّ على ما في صدورهم.

هل كانوا يعرفون بعضاً من قبل؟

كلاَّ، إنهم من جهات مختلفة، ولكنَّ شيئاً ما قد ساقهم إلى هذا المكان.

هل هي الأرواح المتآلفة التي هي كالجنود المجنَّدة التي تساق إلى بعضها بالتآلف والتعارف؟

ربما كان ذلك.

جلس الفتيان ردحاً من الزمن ينظر بعضهم إلى بعض، ويتحدثون أحاديث مقتضبة لا تدلُّ على شيء، وقد بدا أنَّ كل واحدٍ منهم يكتم في نفسه شيئاً، لايمنعه من إظهاره إلا خشيته من جلسائه، أن يكون فيهم من هو من عيون الملك ومراقبيه.

لقد فطن أحد الفتيان من خلال قراءته لوجوه الجالسين إلى أن هنالك عاملاً مشتركاً جمعهم في هذا المكان، ولربما عرف من خلال قراءة وجوههم أنهم يحملون همَّاً واحداً، وأنهم شركاء في فكر واحد، ومعتقد واحد.

قال لهم بلهجة واثقة:

تعلمون ـ والله ـ إنه ما أخرجكم من احتفالات قومكم، وأفردكم عنهم في يوم عيدهم هذا إلا شيء، فليظهر كلُّ واحد منكم ما لديه.

هنا تكشفت الحقائق، وحان للمشاعر المكبوتةِ أن تنطلق، وللأحاسيس المجروحة أن تتدفق معبِّرة عن وَهَجِ الأسى في القلوب المؤمنة بربها.

قال أحدهم:

أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما يستحق العبادة الخالصة «اللهُ رب العالمين».

فهو ـ سبحانه ـ الذي خلق كل شيء، وهو المحيط بكل شيء وخالق السماوات والأرض وما بينهما.

وما كاد ينطق بذلك حتى انطلقت ألسنة الفتيان كلهم تؤمِّن على قوله، وتؤكد رأيه، حتى شاع بينهم جوٌّ بديع مشحون بعاطفة جياشة من الحبِّ في الله الذي انتشرت أشذاؤه العطرة في أرجاء المكان.

ياله من حب عظيم في الله العلي العظيم!

لحظة واحدة صار فيها أولئك الفتيان يداً واحدة، وشعوراً واحداً، وأخوَّة واحدة صادقة.

هنا رأوا أن يتخذوا معبداً سرّياً يعبدون فيه ربَّ العباد سبحانه وتعالى، بعيداً عن عبادة الأصنام.

ولم يمض بهم إلا زمن قصير في معبدهم الصغير، حتى بلغ خبرهم قومهم، وظلَّ ينتشر حتى بلغ خبرهم الملك الذي واجه الخبر بانفعال شديد، وغضب كالبركان كما هي عادة المكابرين ـ وأصدر أوامره الصارمة بإحضار أولئك الفتية إليه.

حينما حضروا قرأ في وجوههم من علامات الصدق، ودلالات راحة القلب ما أدهشه، ولو كان في نجوة من مكابرته وطغيانه، لظهر ذلك على لسانه، ولقربهم إليه وجعلهم من أعوانه.

سألهم عن حالهم، فأجابوه جميعاً بإجابة الحق، وتحدثوا معه بلسان واثق عن خالق الخلق، وقد بدا عليهم الهدوء والرزانة ورباطة الجأش، والثقة بالنفس، فدعوه بلهجة واضحة إلى عبادة الله عز وجل، وترك ما هو عليه من الضلال.

إنها لغة رزينة، ولهجة صادقة، وحقٌّ واضح، أكَّدها لنا القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: 14].

لكنَّ المكابر لا يستطيع أن يرى الحق بعين بصيرة سليمة، ولا يستطيع أن يحتمل ثقل الكلمة الواضحة، واللهجة الصادقة ولا يجد مخرجاً من كهف مكابرته وضلاله.

إن هؤلاء الفتيان يتجاوزون حدَّهم الآن، ولا يكتفون بالاعتراف بما هم عليه، بل يتجاوزونه إلى دعوة الملك إليه، وفي هذا ما يمسُّ كبرياءه، وغروره، ولولا ذلك الغرور وتلك الكبرياء لكان لحديثهم أثرٌ في نفسه جديرٌ بأن يعيده إلى الصواب.

غضب وتوعَّد وهدَّد، ولما رأى ثبات أولئك الفتية، وهدوءهم، ورزانتهم، وإشراق وجوههم بالإيمان العميق بما هم عليه من الحق، زاد غضبه اشتعالاً، وصرخ بزبانيته.

هيّـا، انزعـوا عن هؤلاء الآبقين لبـاسـهم الجـمـيل، وهم من أبناء الأمـراء وعِلية القوم، وجـرِّدوهم من مظاهر زينتهم. وقـد اعتـادوا أن يلبسوا مايلبسه أصحاب المكانة والثراء في زمانهم.

وتسابق إليهم رجال الملك ينفِّذون ما أمر به.

وأصبحوا أمامه مجرَّدين إلا من أسمال بالية تستر أجسادهم ثم أمـرهم أن يراجـعـوا أنفـسـهم، ويتـوبوا إلى رشـدهـم وأعطاهم ـ لأن آباءهم ذوو مكانة ـ مهلة لمراجعة النفس والعودة إلى دينه ودين قومهم.

تركهم بعد أن جرَّدهم من ملابسهم الجميلة، وفي نفسه أنهم لن يحتملوا ذلك، وأنهم سيعودون إلى الصواب الذي يراه هو، مع أنه على باطل لا ريب فيه.

يقول المؤرخون:

لقد كان من تمام لطف الله بهم أن هيّأ لهم هذه المهلة من الملك مع أن المتوقَّع منه أن يأمـر بقـتلهم، إنه تقـدير من يعلم الغـيب، ويعلم أنَّ هؤلاء الفـتيـة سيكونون درساً عظيـماً للنـاس أجـمـعين، يظلُّ حيَّاً في النفوس إلى يوم الدين.

خرج الفتيان من عند الملك، وهم يشعرون بالأسى الكبير لما رأوا من مكابرته، وحيدته عن الحق واغتراره بما هو فيه.

عند ذلك خرجوا هاربين بدينهم من المدينة، مغتنمين فرصة المهلة التي منحها لهم الملك، وساروا متخفِّين متلفِّعين بالظلام، متجهين إلى كهف ليس ببعيد عن المدينة، حيث أووا إليه، مستأنسين بالله سبحانه وتعالى في وحدتهم.

حينما مرَّ بهم يوم أو يومان، فقدهم قومهم، ولم يجدوا لهم أثراً، وحينما بلغ خبر اختفائهم الملك ثارت ثائرته، وندم على إمهالهم ندماً شديداً، وأمر بالبحث عنهم وإحضارهم إليه ليوقع بهم شديد عقابه.

ياله من مكابر عنيد!.

هكذا تنزل المكابرة بأصحابها إلى هذا المستوى المتدنيٍّ من التعامل مع الصالحين.

بحث عنهم رجال الملك، وفي ظنِّه وظنِّهم أنهم سيلقونهم، ولماذا لا يلقونهم وهم في إطار مملكته الكبيرة؟!

تقول بعض الروايات: إنهم وصلوا إلى بوَّابة الكهف الذي أوى إليه أولئك الفتية، فلم يظفروا بهم، وعمَّى الله عنهم الأبصار، كما عمَّى أبصار كفَّار قريش عن نبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق وهما في الغار.

وتقول روايات أخرى: إن القوم عثروا عليهم، ورأوهم وهم في الكهف وأخبروا الملك بذلك، فقال: يكفيهم من العقوبة ما صنعوا بأنفسهم، وأمر بردم باب الكهف عليهم بالصخور ليهلكوا في مكانهم، وإن كان ابن كثير قد ضعَّف هذا القول مستدلاً بإخبار الله سبحانه وتعالى عنهم بأن الشمس كانت تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشياً، فكيف تدخل عليهم لو أن باب الكهف قد أغلق بالصخور الكبيرة؟؟.

المهم أنَّ الملك المكابر ظلَّ عاجزاً عنهم لحماية الله لهم، حتى إذا استقرُّوا في الكهف، ضرب الله على آذانهم بالنوم لحكمةٍ أرادها، وهيَّأ لهم من الأسباب ما يحول بين أجسادهم وبين البلى، وقدَّر أن

يظلوا في رقدتهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، والله يقلّبهم بمشيئته ذات اليمين وذات الشمال، وكانت أعينهم مفتوحةً لم تنطبق، لئلاّ يسرع إليها البلى. لبثوا في كهفهم بإرادة الله.

فماذا حدث للملك المكابر «دقيانوس».

لقد أنهى الله ملكه بقدرته، وانطوى ذكره، وتهاوى صرح مملكته، وورث الملك بعده ملوك، صلح أمرهم واستقاموا، وعادوا إلى فطرتهم، حتى إذا أذن الله لأولئك الفتيان بأن يستيقظوا من غفلتهم الطويلة بعد تسع وثلاثمائة سنة، كان إيقاظهم في عهد الملك "تيدوسيس" وكان مسلماً فيما قيل.

قام الفتية ينظرون إلى بعض، ولم ينكروا من هيئاتهم شيئاً، ووقر في نفوسهم أنهم ناموا يوماً أو بعض يوم.

وبعثوا أحدهم إلى مدينتهم ليجلب لهم الطعام، وطلبوا منه الحذر حتى لا يعلم بهم الملك الطاغية «دقيانوس»، وما علموا أنه قد شبع فناءً، وصار جسمه تراباً.

حينما وصل رسولهم إلى المدينة اندهش للمعالم التي تغيرت بصورة عجيبة، فالأرض غير الأرض، والعمران غير العمران، والناس غير الناس.

ياله من موقف عجيب غريب!

حينما مدَّ يده إلى صاحب المتجر بالنقود، اندهش التاجر وهو يرى نقوداً قديمة كانت تستخدم قبل عشرات السنين، وتناقل الناس خبر الفتى ونقوده، وعلموا منه أنه يعتقد أنه في عهد «دقيانوس».

أين أنت أيها الفتى من ذلك الملك الذي مات منذ ثلاثة قرون؟

أدرك الفتى أنَّ الأمر فيه معجزة عظيمة، وأدرك الناس أنهم أمام حدث ضخم لايكاد يصدقه عقل بشري. ولكنَّ بقايا من أخبار قصة أولئك الفتية مع ذلك الملك المكابر كانت ما تزال تتناقلها ألسنة الرواة من جيل إلى جيل، وكانت نهاية الفتية الهاربين لغزاً محيِّراً لا جواب عنه.

وهاهم اليوم يرون الجواب العجيب، عن ذلك اللغز العجيب.

انطلق الناس ومعهم الملك «تيدوسيس» إلى الكهف برفقة ذلك الفتى، ورأوا الفتية رأي العين، ويقال: إن الملك ورجاله دخلوا إلى الفتيان وسلَّموا عليهم وتعانقوا، ثم فوجئوا بهم يودِّعون الناس ويعودون إلى مضاجعهم، حيث توفَّاهم الله عز وجل، بعد أن تأكدت لمنكري البعث والنشور حقيقته الكبرى في قصة هؤلاء الفتية.

أما ذلك الملك المكابر، فقد صرفته مكابرته عن القيام بدور عظيم، لو قام به لسجل في سجلات العظماء.

لقد أصبح بسبب غروره وكبريائه مضرب مثل للذين يتَّبعون أهواءهم من خريجي مدرسة المكابرة تحت إشراف ومتابعة إبليس اللَّعين.

أما أولئك الفتية الذين ثبتوا على الحق، فقد أصبحوا مثلاً عجيباً لمن آمن بالله فأواهُ الله ونصره وأيده، وأنزل الله سبحانه وتعالى بعد قرون من وفاتهم آيات قرآنية تذكُرُهُمْ تتلى آناء الليل وأطراف النَّهار إلى أن تقوم الساعة.

وسمِّيت سورة قرآنية باسمهم، وشرَّفها الله سبحانه وتعالى بفضل عظيم، حيث شرع قراءتها يوم الجمعة، وكتب لقارئها أجراً وفضلاً كبيراً في الدنيا والآخرة.

قال أبو الدرداء: قال النبي ﷺ:

«من حفظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف عصم من الدجال»

رواه مسلم.

وفي رواية أخرى قال:

«من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»

رواه مسلم.

اللهم املأ قلوبنا باليقين، واعصمنا من الشك والظنون.

المكابر الثاني عشر
«أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفرا»

رجلٌ أعطاه الله المال، وفتح له من الدنيا ما جعله ذا نعمةٍ مذكورة في الناس، وبارك له في بُستانيْنِ عظيمين مليئين بالأشجار المثمرة والحقول المخصبة، والزروع المختلفة، وفجَّر له خلال هذين البستانين نهراً يجري صافياً متدفقاً.

رجل ذو ثراء ونعمة، تحف أشجار النخيل ببستانيه الكبيرين الذين استحقا أن يسميا جنتين من أعناب، وهل هناك أجمل من جنيتن معروشتين فيهما من أصناف العنب وألوانه ما يسعد عين الناظر وقلبه؟!

رجلٌ يعيش حياةً رغيدةً في هاتين الجنتين يأكل من ثمار أشجارهما التي لا تنقطع، ومن إنتاج زرعهما الذي لا يخلف موعدَه، ويستمتع بمنظر أعنابها ونخيلها ونهرهما الرَّقراق الذي يتخلَّل في الأشجار في أجمل منظر تراه عين.

نعمة عظيمة تستحق الشكر، وتدفع بصاحبها إلى تقديم ما أنعم الله به عليه في قوله وعمله، وإحسانه إلى الناس، وفي مخبره ومظهره.

إنها نعمة عظيمة، وحقُّ النعمة عند العقلاء الراشدين أن تشكر وأن يتجه صاحبها إلى الله سبحانه وتعالى المنعم المتفضل، شاكراً عابداً خاشعاً مطيعاً متصدقاً باذلاً للخير.

وإذا فعل الإنسان ذلك زادت بركة نعمته، ونمت، وضاعفها الله أضعافاً كثيرة، مع ما يدخل لصاحبها عنده من الأجر العظيم.

هذا هو التعامل الأمثل مع نعم الله سبحانه وتعالى.

وهذه هي النتيجة المشرقة لصاحب النعمة الشاكر لربه، المؤدي حق النعمة عليه شكراً وحمداً وإحساناً وصدقة.

أما إذا اغترَّ صاحب النعمة بنعمته، وغرق في غروره ولهوه ظاناً أنه أوتي هذه النعمة لميزة خاصة عنده، فقد انحرف عن الطريق الصحيح، وساق نفسه إلى الهلاك.

هذا ما فعله ذلك الرجل الذي طغى بنعمته وتجبَّر.

رجل من خلق الله، وعاش في زمن من الأزمنة، ومكان من الأمكنة، أنعم الله عليه بنعمة، وأجزل له في كرمه، وفتح له من أبواب الدنيا ما جعله ذا مال وبنين، وزروع ومقام مكين.

ثم ماذا؟

أصابت ذلك الرجل نشوة الثراء، وخدَّرت عقله سكرة المال والنعمة، ووجد الشيطان في نفس هذا الرجل المغرورة المكابرة مدخلاً إلى قلبه وعقله، فدفعه إلى الغرور دفعاً، وأغراه بالمكابرة، وزاد في شعوره بالتميز والعظمة، حتى نسي المنعم المتفضل، وتعاظمت عنده نفسه، فظنَّ أنه جديرٌ بذلك كلِّه، وأنه مستحقٌّ لهذه النعمة، وأن شخصيته المتميزة هي التي جلبت له هذا الخير العميم.

إنها مكابرة النفس الأمّارة بالسوء، النفس التي تتلمذت على إبليس الرئيس الأعلى لمدرسة المكابرة والغرور.

إن عين ذلك الرجل لا ترى إلا جانب عظمته ومكانته، فهي لا تلتفت إلى شيء آخر،وهو مقتنع بهذه النظرة كلَّ الاقتناع.

ولهذا كانت قصته قصة عجيبة، أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها في سورة الكهف، في أجلى صورة وأعظم بيان.

لقد جاءت القصة في سياق مناسب لها تماماً، كما هو شأن كل قصة ترد في القرآن الكريم.

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يصبر على مجالسة أهل العبادة والذكر من أصحابه الذين آمنوا به وإن كانوا من أقل الناس مالاً، وأرقّهم حالاً.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28].

خطاب واضح صريح، وأمرٌ من الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ أن يصبر على مجالسة الفقراء والضعفاء، وألاَّ يستجيب لدعوة أشراف قريش الذين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعقد لهم مجلساً خاصاً بهم بعيداً عن ضعفاء أصحابِهِ كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.

وقد روى مسلم في صحيحه حديثاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ:

اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع، فحدَّث نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52].

وقد نقل ابن كثير حديثاً عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ، وهو في بعض أبياته

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28].

فخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافي الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم».

في هذا السياق جاءت قصة صاحب الجنَّتين لتؤكد لرسول الله ﷺ، ولأمته أنَّ النعمة والمال منحة من الله لمن يشاء من عباده، وأنها ابتلاء واختبار إذا لم ينجح فيه الإنسان فسوف ينال عقاباً عاجلاً في الدنيا قبل عقاب الآخرة.إنها قصة رجلٍ أنعم الله عليه ـ كما أشرنا من قبل ـ فكابر وعاند وجحد نعمة الله عليه.

وهنا يأتي دور المكابرة التي تجرُّ أصحابها إلى الهلاك، وتدفعهم إلى هاوية الانحراف.

إنها قصة موعظة وعبرة لأولئك المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، الذين احتقروهم وافتخروا عليهم بالمال والحسب، والنَّفخة الكاذبة التي يتفنن الشيطان الرجيم ـ نعوذ بالله منه ـ في عرضها وتحسينها في نفوس المكابرين وعقولهم.

دخل جنَّته «وهو ظالم لنفسه» فرأى أعنابها ونخيلها وثمارها، ونهرها الجاري وزرعها الأخضر، فقال بلسان المكابرة والغرور لصاحبه الذي كان معه.

«أنا أكثر منك مالاً وأعزَّ نفراً».

عجباً لهذه الكلمة الجوفاء التي انطلقت من فم الرجل بغير ما سبب.

كيف يقول رجل عاقل لصاحبه الذي معه هذه الكلمة المشحونة بالمكابرة والغرور؟ أين أدب الكلام، وأين تقدير مشاعر الآخرين؟.

لا مكان لذلك عند المكابرين.

ولهذا تابع مكابرته قائلاً، وكأني بأوداجه قد انتفخت غروراً وكبراً وهو يقول:

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: 35].

سبحانك اللهم وبحمدك!.

كيف خرجت هذه الكلمات المظلمات الملتهبات من فم هذا المكابر بهذه الصورة الفجَّة المؤسفة.

أين البصيرة والعقل، وأين الحكمة والتروُي؟

لا مكان لذلك عند المكابرين.

لقد بلغ الغرور بهذا الرجل مبلغه، ووصلت به المكابرةُ نهايتها، فهو ـ في هذه اللحظة ـ لا يرى إلا نفسه، وجنَّتيه، والنعمة التي يتقلَّب فيها.

هو الآن أعمى عن كلِّ شيء آخر، فهو أعمى عن رؤية صاحبه الذي كان يجب أن يحترم مشاعره.

وهوأعمى عن رؤية أحداث الدنيا وتقلُّباتها، وتغيُّر أحوالها. ولهذا قال الكلمة التي لا يقولها عاقل رشيد.

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35].

هكذا جملة واحدة بلا تريث ولا تعقُّل؟

ولو تخلص من هيمنة غروره ومكابرته، لما قال هذه الكلمة الكبيرة أبداً، لأنه يرى من واقع الحياة ما يناقضها تماماً.

فالموت يتخطَّف الناس من حوله، وأحوال العباد تتغيَّر أمامه من غنىً إلى فقر، ومن عزَّ إلى ذل، ومن نصر إلى هزيمة.

إنَّ هذا الرجل لا يرى شيئاً من ذلك الآن.

لقد انغمس في مكابرته، وانجرف مع متع الحياة ولذائذها وبريق نعمتها فأصبح في دائرة ضيَّقة، يتقن إبليس رسمها لأتباعه وطلاَّب مدرسته المنحرفة.

يقول ابن كثير:

لقد أشارت الآيات الكريمات إلى جمال الجنتين وسعتهما، وإقبالهما بالثمار الجيَّدة اللذيذة، وجمال النهر الذي يتخلَّلهما، وفي ذلك دليل على أن الرجل قد كان ذا مال عريض وخدم وحشم وولد، فهو كثير المال عزيز النفر.

ولكنه بمكابرته ظلم نفسه، فأصابه الغرور وقال ما قال من الكلام الذي ساقه سوقاً إلى النهاية المديرة.

فهو أنكر أن يكون قد تفضَّل عليه ربه بهذه النعمة.

وأنكر أن تبيد هذه النعمة أو تزول.

وأنكر أن تقوم الساعة.

ثم توَّج ذلك كُلَّه بما هو أسوأ منه، ومما يدل على مكابرته التي لا حدود لها.

فقد زعم أنه إذا جاء يومٌ ورجع إلى الله، فإنه سيجد من النعيم ما هو خير من هاتين الجنَّتين.

لماذا؟

لأن المكابرة أعمت بصره وبصيرته، فما عاد يفكر بطريقة صحيحة.

لقد أذهلت كلماته صاحبه الذي كان معه، وشعر بالهوَّة السحيقة التي وقع فيها صاحبه المكابر، وأشفق عليه كلَّ الإشفاق من هذا الانحراف.

فبادره مباشرة بقوله:

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: 37].

إنها النصيحة الصريحة، والسؤال الإنكاري الواضح، كان لا بد منهما في مواجهة ذلك السيل الجارف من المكابرة والغرور.

إنه يذكِر صاحبه المكابر بخلقِهِ الأول من التراب والنطفة، ورعاية الله سبحانه حتى أصبح رجلاً، وياله من توجيه واضح قوي، ومن نصيحة صادقة صريحة!! ولكنَّ مدرسة إبليس المكابر ترسخ في نفوس تلاميذها وعقولهم الجحود والنكران حتى يصبح الناصح عندهم جاهلاً لا يفهم شيئاً.

إنَّ هذه اللَّفتة جديرة بمراجعةِ النفس لو كان من يستمع إليها منعتقاً من قيود المكابرة، والهيمنة القويَّة لوساوس الشيطان الرئيس الأعلى لمدرسة المكابرين.

ولعل ذلك الصديق الناصح قد رأى في وجه صاحبه صاحب الجنتين من المكابرة، وعدم الاعتداد بما يسمع من النصيحة، والسخرية من هذا المنطق الذي لا يحبه المكابرون، فدفعه ذلك إلى مواصلة النصيحة، والتذكير، مع الإشارة إلى النهاية المحتومة للمكابر التي لا مناص منها إذا تمادى في مكابرته.

ولذلك قال ـ متحدثاً بنعمة الله عليه ـ ﴿لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: 38] وكأنه يذكِّر صاحبه وهو العارف به بأن الثبات على الحق، والرجوع إليه خير من التمادي في الباطل.

ثم يوجهه في اللحظة نفسها، لعله يعود إلى رشده قائلاً ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: 39].

إنه توجيه لطيف إلى الأسلوب اللأَّئق بالمؤمنين أصحاب اليقين والقناعة والإيمان بربِّ العالمين، ولكنَّ استمرار الصديق الناصح يؤكِّد لنا أنَّ قراءته لوجه صاحبه قد نقلت إليه حقيقة ما هو فيه من المكابرة، وما تنطق به ملامحه من الاستهزاء بصاحب النصيحة، وإشعاره بأنه فقير معدم ولهذا يقول هذا الكلام، ولو كان ذا مال عريض لكان له شأن آخر.

إن الموقف يوحي بذلك ولهذا قال النَّاصح المخلص في مقابلة سخرية صاحبه ومكابرته.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 40-41].

هنا حسم الناصح الموقف، ووضع أمام صاحبه المكابر الصورة القاتمة التي قد يصل إليها، فلعلَّه يستشعرها فيراجع نفسه ويثوب إلى رشده وعقله، لقد رسم له أسوأ صورة يمكن أن تصل إليها جنَّتاه إذا استمر في جحوده ومكابرته، فقد يبعث الله سبحانه وتعالى عليها «حسباناً من

السماء»، والحسبان هو العذاب، أو المطر العظيم المزعج الذي يقلع الزرع والأشجار، ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: 40] أي أرضاً ملساء، لايستطيع أحد أن يسير فيها، وقال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ [الكهف: 41] أي: غائراً في الأرض لا تستطيع الوصول إليه.

صورة مؤلمة لم يلتفت إليها المكابر، لأن غروره ووسوسة الشيطان له قد جمَّدا مواطن الإحساس عنده، فأصبح مثل صخرة صمَّاء لا يشعر، ولا يسمع، ولا يرى.

ولهذا كلِّه أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن النتيجة كانت كما توقَّع الناصح، وكانت سريعةً إلى درجة مفاجئة لم يكد معها المكابر أن يصدق ما رأت عيناه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: 42] جملة جامعة مانعة، تجعلنا نتخيَّل عشرات الطرق التي تمَّت بها هذه الإحاطة، ونتخيل ما فيها من الشدّة والسرعة والمفاجأة، وهذا سر من أسرار بلاغة القرآن العظيم.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: 42] كيف؟ ومتى؟ ليست هنالك إجابة محدَّدة فالفعل المبني للمجهول ﴿وَأُحِيطَ﴾ [الكهف: 42] يفتح أمام خيالنا أبواباً كثيرة لطريقة تلك الإحاطة وأسلوبها.

ماذا جرى للمكابر؟

هاله الموقف، وهزَّه من الأعماق فردَّد في ذهول:

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [الكهف: 42].

أين هذا الإحساس من قبل؟ لم يكن موجوداً، لأن حاجز المكابرة قد حال بينه وبين تصوُّر ما قد يحدث، أمَّا وقد حدث بهذه الضخامة، وبهذه السرعة، وبهذه الصورة المؤلمة، فإن حاجز المكابرة قد تحطَّم ولكن تحت وقع ضربات الحدث المؤلم أي: بعد فوات الأوان.

وهذا هو شأن المكابرين، كما رأينا سابقاً في موقف فرعون حينما أدركه الغرق.

أين الأنصار والأعوان، وأين الفئة التي تقف مع هذا الإنسان؟! لا وجود لهم الآن؟.

والنتيجة الحقيقية هي:

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44].

اللهم إنا نسألك أن ترينا الحقَّ حقاً وترزقنا اتباعه.

المكابر الثالث عشر
«باسم الله ربٌّ الغلام»

إنَّ من عجائب البشر ما يحدث منهم من النسيان والغفلة، بالرغم من تكرُّر وتكاثر مواقف الموعظة والعبرة، ومن استسلامهم لوساوس، حامل لواء المكابرة بلا منازع، قائد المتمردين بلا منافس، وقدوة العاصين المارقين، سيد الخارجين على الأنظمة والقوانين المشرف على مدرسة الغرور والمكابرة «إبليس» نعوذ بالله منه.

نعم إنَّ غفلة المكابرين عن أنفسهم، وعدم قدرتهم على الرؤية الصحيحة للمواقف والأحداث هي التي تجعلهم في غيِّهم يعمهون، وفي أوهامهم يسترسلون، حتى يروا النهايات المفجعة فيندموا حين لا ينفع الندم.

ملك من الملوك، أطغاه ملكه، وغرَّه جاهه، وألهاه ماله وولده، وخدمه وحشمه وجنده، فطغى على الناس واستكبر واعتمد على السحرة والمشعوذين في تزويق ملكه، والتمويه على الناس، حتى ظنَّ أنه قد تمكن من الكون، وأصبح في منزلة الإله القادر ـ نستغفر الله من ذلك ـ

إنَّ مظاهر السحر وتخييلات السحرة، قد استولت على ذهنه، واستحكمت في قلبه المريض، فظنَّ أنه قادر على كل شيء وأنه فوق البشر مكانة وقدرة وعظمة.

ولو تأمل هذا المكابر وغيره من المكابرين نفسه وهو يذهب إلى الخلاء لَوَضَعَ نفسه في الموضع الصحيح.

إنها المكابرة التي لا تترك لصاحبها مجالاً للتفكير السليم.

كان ملكاً ذا مقدرة كبيرة، وصول وجَوّل، سرقته غفلته من يقظته، وسرقه وهمه من وعيه، وسرقه جهله من علمه، وسرقة كبرياؤه من تواضعه فأصبح عقلاً وقلباً جامدين لا يعرفان معروفاً ولاينكران منكراً.

كان لذلك الملك ساحر، أبدعَ في السحر وأجاد، وأصبح سيِّد السَّحرة في زمانه، تلاعب بعقل الملك طيلة حياته، وخيَّل للناس ما لم يكونوا قادرين على مواجهته وتكذيبه، حتى وقر في نفس الملك أنه ارتقى إلى مقام القدرة المطلقة، ووقر في نفوس عامَّة الناس مثل ذلك أيضاً.

كبر الساحر، وضعف، وأعجزه الهرم عن القيام بما كان يقوم به، فقال للملك ـ وفيما رواه مسلم والنسائي، والإمام أحمد:

إني قد كبرت سنِّي، وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً فأعلِّمه السحر.

اختار الملك غلاماً ذكيَّاً بمشورة رجاله فبدأ الساحر بتعليمه السحر.

إنَّ مكابرة الملك قد أغفلته عن نفسه في حينها فظنَّ أنَّ كل ما يريده سيتحقق، فاطمأن إلى ذلك الغلام، ولعله ردَّد في دخيلة نفسه قوله:

هاأنذا استمر في مقدرتي من خلال هذا السحر العظيم الذي سيتقنه هذا الغلام الذكي، وسكنت نفسه إلى هذا الوهم القاتل.

كان الغلام متحمساً في ذهابه إلى الساحر، ولعلَّ أهله قد فرحوا بهذا الاختيار الملكي الذي سيجعل ابنهم ركناً من أركان دولة ذلك الملك المكابر.

أما ما قدره الملك العظيم، ملك الملوك، المحيط بكل شيء سبحانه وتعالى، فهو شيء آخر.

قدَّر ـ سبحانه ـ وهو القادر دون سواه أن يكون على قارعة طريق الغلام راهب عابد لله عز وجل منقطع إليه، لفت نظره فمرَّ به، وأعجبه ما هو عليه من الخشوع والعبادة، وصفاء النفس وإشراقها، وهو غلام ذكيٌّ طُلَعَةٌ حريص على المعرفة، فاستمع إلى الراهب، وعرف منه معنى العبادة ومعنى الألوهية الحق، وأدرك بذكائه الفرق الكبير بين أوهام الساحر وحقائق الرَّاهب، وكشف للراهب ما في نفسه ففرح به فرحاً كبيراً، وحينما لفت تأخر الغلام نظر الساحر من جهة، ونظر أهله من جهة أخرى، فأصبح يتلقى الضرب والعقاب والتأنيب من الجهتين، نصحه الراهب بألاَّ يكشف أمر علاقته به لأحد، وأن يعتذر لأهله بأن علم الساحر العظيم هو الذي يجعله يتأخر عنهم، ويعتذر للساحر بأن مشاغل أهله هي التي تجعله يتأخر عنه.

وسار الأمر على ما يرام، وتكوَّن لدى الغلام الذكي من تخييل وألاعيب الساحر، ومن علم ومعرفة الرَّاهب ما جعله يفكِّر في طريقة مناسبة للتأكُّد من الأمر، ومعرفة أيّ الأمرين يكون صحيحاً نافعاً ثابتاً، وأي العلمين يكون غالباً.

وكان الراهب على علم بمكابرة الملك، واعتقاده أنه إله فكان يحذِّر الغلام من البوح بعلاقته به، ويؤكد له أن الملك الطاغية لن يتورع عن قتلهم جميعاً.

ولكنَّ الأمر لا يحتمل التأجيل، والغلام أصبح متشبعاً بشيئين متناقضين، أحدهما ـ وهو السحر ـ يبهر العين والعقل، والآخر ـ وهو العلم الشرعي والدين ـ يقنع العقل، ويملأ القلب والنور، ويشرح الصدر، فلا بد له من الفصل.

وجاء اليوم المناسب، والفرصة الثمينة.

كان الغلام في طريقه المعتاد فرأى الناس محبوسين أمامه قد تجمعوا بأعداد كبيرة، ولما اقترب رأى دابَّة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، وهنا انقدحت في ذهنه فكرة الاختبار لما يتلقَّاه من عمل الساحر وعلم الراهب فأخذ حجراً وقال:

اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها بالحجر فقتلها مباشرة، ومضى الناس.

موقف عظيم، أصبح الحقُّ فيه أجلى من وجه الشمس في ويومِ الصَّحو، لا مكان هنا للشك والتردُّد عند هذا الغلام الذكيّ.

لقد كان حدثاً عظيماً لفت نظر الناس، ولا شك أنهم قد تناقلوه بينهم متعجبين معجبين، ولربما أعادوا هذه القدرة إلى إبداع الساحر الذي يعلم الغلام لأنهم ـ لا شك ـ يعرفون علاقة الغلام بالساحر، ومن لم يكن يعرف فقد عرفَ في ذلك اليوم.

أما الغلام فقد أخبر الراهب بالأمر، فعرفَ الراهب أنَّ الغلام قد وصل، وأنه أصبح من أصحاب الشأن في مجال الحق والخير، فقال له: أي بنيَّ، أنت أفضل مني، وإنَّك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليَّ.

نعم، إنَّ الرَّاهب يعرف أساليب المكابرين من الطُّغاة، المتجبرين، فهم لا يحبون الحقَّ ما دام مخالفاً لما يمارسون من الظلم والتسلُّط على الناس، ولا يرحمون أهل الحقَّ الذين يواجهون باطلهم، ولايتعظون، ولا ترى بصائرهم المطموسة الحقائق التي تبرز أمامهم.

لقد أكَّد الرَّاهب بعد حادثة الدابّة أنَّ الابتلاء حاصل، ولهذا طلب من الغلام ـ انطلاقاً من رغبة الإنسان في السلامة ـ ألاَّ يكشف أمره للملك، فهل تحقق ذلك؟

لقد اشتهر الغلام، فكان ـ بعون من الله وتوفيق ـ يبرئ الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء، وكان ذلك يجري بين الناس بعيداً عن علم الملك في بداية الأمر، ولكنَّ ما يفعله هذا الغلام لا يمكن أن يبقى مكتوماً، فهذا هو أحد جلساء الملك يصاب بالعمى، ويحضر مجلس الملك كعادته بعدما عمي، سمع بالغلام فأتى بالهدايا الثمينة إليه وقال:

اشفني ولك ما ههنا أجمع.

فقال الغلام:

ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت لك فشفاك، فآمن ذلك الأعمى، فدعا له الغلام، فشفاه الله سبحانه وتعالى.

عاد جليس الملك إلى مجلس سيِّده بصيراً، فعجب الملك وسأله من ردَّ عليك بصرك؟

فقال: ربِّي.

هنا انتشى المكابر قائلاً:

أنا؟

ولأن ذلك الجليس الذي عاد إليه بصره قد ذاق حلاوة الإيمان التي لا تساويها حلاوة، فقد قال للملك بوضوح: لا، ربي وربك الله.

لو كان الملك سالماً من داء المكابرة، لَلَفَتَ نظره الموقف، وبحث عن الحقيقة، خاصة وأنه يسمع الكلام من أحد جلسائه ورجاله؛ ولكنَّ مدرسة الشيطان لا تخرِّج تلاميذها، وتمنحهم شهاداتها إلاَّ بعد طمس بصائرهم.

قال الملك:

ولك ربٌّ غيري؟

قال الرجل: نعم، ربي وربُّك الله.

هنا تحرَّك الغرور والطغيان، فأمر بتعذيب جليسه وصاحبه حتى دلَّهم على الغلام.

لاشك أن الملك قد دهش لمَّا علم أن الغلام الذي اختاره لتعلُّم السحر قد بلغ هذا المبلغ، ولا شك أنه فرح بذلك، معتقداً أنَّ ما حدث إنَّما هو ثمرة تعليم الساحر له، ولهذا بعث إليه بسرعة وأحضره، واستقبله هاشَّاً باشَّاً وقال له:

أي بنيَّ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟

قال الغلام بلغة الواثق:

ما أنا أشفي أحداً، إنَّما يشفي الله عز وجل.

وهنا أيضاً تبرز أمامنا بصيرة الملك المكابر المطموسة، تلك البصيرة التي تظلُّ على عماها، فيكرِّر على الغلام السؤال نفسه الذي وجَّهه إلى جليسه الذي عوفي من العمى.

قال للغلام:

أنا ربك؟

قال الغلام: لا.

يالها من «لا» تقف هنا شامخة قويَّةً لا غبار عليها. وكأني بالكون كلِّه يردِّد مع الغلام أمام ذلك المكابر:

«لا»

ولكن المكابر لا يعي ولا يسمع، فيواصل طارحاً سؤاله:

أولك ربٌّ غيري؟

قال الغلام: ربي وربك الله.

أين تعليم الساحر؟ أين ولاء هذا الغلام للملك المكابر؟ إنها صدمةٌ كبيرة لا تحتمل، ولو كان للملك شيء من بصيرةٍ سليمة لراجع نفسه هنا، ولكنَّ المكابر لا يرى.

أمر بتعذيب الغلام حتى دلَّهم على الراهب.

هنا عرف الملك مصدر هذا الأمر، ولو كان ذا بصيرة لدعى إليه الراهب وسمع منه وأكرمه وراجع نفسه، ولكنَّ تلاميذ مدرسة الجحود والنكران الشيطانية لا يستطيعون ذلك، فهم يتمادون، ويستمرون في كفرهم ومكابرتهم حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

أمر الملك بإحضار الراهب، ولم يسأله، ولم يناقشه لأنه يعرف ما لديه، ولكنه قال له مباشرة:

«ارجع عن دينك».

ـ سبحان الله ـ ما أعظم غفلة المكابرين:، هكذا بكل سهولة ويسر ـ أيها المغرور ـ تريد من عابدٍ لربِّه ذاق حلاوة الإيمان أن يرجع عن دينه؟

ألم تسمع بقصّة «زميلك» في مدرسة المكابرة «فرعون» مع السحرة الذين أعلنوا إيمانهم بالله وماتوا على ذلك؟.

«ارجع عن دينك»، جملةٌ عمياء كعمى من قالها، ولهذا قال الراهب بملء فمه، من غير تردُّد:

«لا»

إنها «لا» بروعتها وجمالها وقوَّتها الجارفة في هذا المقام.

«لا» التي تطعن قلب المكابر المغرور.

هنا يستخدم المكابر أساليب المكابرين الطغاة المعروفة، «القتل الشنيع».

أمر بوضع المنشار في مفرق رأس الراهب حتى وقع شقاه على الأرض، وكأني به يطلق ضحكة غبيَّة وهو يفعل ذلك، مصوراً لمن حوله مدى قدرته وقوَّته، وكأنه يقول لهم: هذا مصير من يكفر بي.

لقد دخل بقتله للرَّاهب «دوَّامة» التعامل الدَّمويّ الشنيع. ولهذا التفت إلى جليسه الأعمى الذي شفاه الله على يد الغلام.

وقال له: «ارجع عن دينك».

كأني بالملك قد تيقَّن أن الرجل سيرجع عن دينه بعد أن سمع صوت المنشار يقسم جسم الراهب نصفين، لأن الملك المكابر لا يدرك مدى الرُّقيِّ الروحيّ الذي وصل إليه هؤلاء المؤمنون برب السماوات والأرض والخلق أجمعين.

لقد كان جواب الرجل أيضاً:

«لا»

لا، بكل مالَها من جمال وإشراق في هذا المقام، ولم يراجع الطاغية نفسه بل أمر بوضع المنشار على رأسه وفعل به ما فعل بالراهب.

بقي الغلام، وللغلام عند الملك شأن خاص فهو سبب هذا البلاء كلِّه، ولربما انبعث في نفس المكابر بصيص من أمل في أن يراجع الغلام نفسه بعد رؤيته للرجلين يتحولان إلى أربعة أقسام يتدفق على الأرض دمها الموَّار.

إنَّ الملك هنا في أقصى حالات المكابرة والغرور وعمى البصيرة ـ نعوذ بالله من ذلك ـ

ولهذا قال للغلام العبارة ذاتها:

«ارجع عن دينك»

كانت لحظة انتظار مزعجة للمكابر برغم قصرها قبل أن يسمع الغلام يقول واثقاً رابط الجأش:

«لا»

إنها الهزيمة النَّكراء أيها المكابر المغرور.

«لا»، خذها سهماً نافذاً في قلبك الصخري الذي ليس له إحساس ولا شعور.

كان بإمكانه أن يكمل ما بدأ به، فيأمر بوضع المنشار على رأس الغلام، ولكنه عزف عن ذلك.

لماذا؟

ربما كان يخشى أن يثير الأمر الناس من حوله بصورة غير محمودة العواقب، فهذا غلام صغير، وعمل المنشار في الإنسان عمل فظيع، شديد القسوة قد لاتحتمل رؤيته العين وهو يجري على غلام صغير.

لكنَّ سياق القصة يؤكِّد لنا أنها إرادة الله الذي غفل الملك المكابر عن قدرته وإحاطته بكل شيء، حيث صرف اللهُ الملكَ عن عقاب الغلام بالمنشار إلى أصناف أخرى من العقاب، كانت سبباً في إشهار الأمر وإذاعته بين الناس حتى آتى ثماره التي أرادها الله عز وجل.

كيف عذَّب الملك الغلام؟

لقد أراد إبعاده، وقتله بعيداً عن أعين الناس حتى لايثيرهم، وحتى يطمس معالم الجريمة، فينسى الناس القصة بكاملها.

أمر رجاله بأخذ الغلام إلى جبل شاهق سمَّاه لهم وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلاّ فدهدهوه فيه.

فلما علوا الجبل قال الغلام:

«اللهم اكفنيهم بما شئت»

يالها من دعوة عظيمة خرجت من قلب مؤمن، وَكَلَ صاحبُهُ الأمرَ كُلَّه لله يفعل فيه ما يشاء.

هنا رجف بهم الجبل فتهاوى رجال الملك المكابر، وسلم الغلام.

عاد الغلام إلى الملك، فصدمته رؤيته وسأله:

ما فعل أصحابك؟

فقال: كفانيهم الله.

ما رأيكم ـ أيها الأحبة ـ في هذا الموقف؟

ألم يكن جديراً بالملك أن يراجع نفسه، وأن يثوب إلى رشده؟ أرأيتم كيف تصنع المكابرة بأصحابها؟!

إنها البصائر المطموسة.

لقد أمر الملك جماعة أخرى بأخذ الغلام إلى البحر، وأن يركبوا معه في «مركب صغير»، فإن رجع عن دينه وإلا ألقوا به في البحر، فلما أبحروا، قال الغلام:

«اللهم اكفنيهم بما شئت»

فغرقوا جميعاً، وسلم الغلام.

كان بإمكان الغلام أن يهرب، لكنه صاحب قضيَّة، وقد سخَّره الله عز وجل لنيل الشهادة من جانب، وإصلاح الناس من جانب ثانٍ وإهلاك الملك المكابر من جانب ثالث.

عاد إلى الملك، فصعق برؤيته وسأله عن أصحابه.

فقال:

«كفانيهم الله»

والله لقد كان وقتاً مناسباً أن يقول الملك هنا.

«آمنت بالله»

ولكنَّ المكابرة حالت دون ذلك.

أراد الغلام ـ بإلهام من الله ـ أن يحسم الموقف، فقال للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلاَّ فإنَّك لاتستطيع قتلي.

قال الملك، بغباء وغفلة:

وما هو؟

ولو كان إلهاً لما احتاج إلى هذا كلِّه، يا له من جاهل مغرور!

قال الغلام:

تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم تقول:

«باسم الله ربِّ الغلام»

فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

ماذا فعل الملك؟

سرعان ما نفَّذ ما قال الغلام، فوضع السهم في كبد قوسه ثم رماها، وقال بصوت مرتفع:

«باسم الله رب الغلام»

فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.

فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلام.

ما رأيكم في هذا الموقف؟

إنه موقف عجيب، لايمكن أن يراه عاقل دون أن يتأثر ولو كان للجماد لسان لردَّد بإيمان:

آمنا بربِّ الغلام

أما الملك ورجاله المغموسون في أوحال الكبرياء والغرور فما فطنت عقولهم الغائبة عن وعيها إلى هذه الموعظة العظيمة وما اهتَّزت قلوبهم المغلَّفة بغلاف المكابرة والغفلة لهذا الموقف العظيم.

لقد كان جديراً بهم أن يردِّدوا مع الناس:

آمنا برب الغلام

وأن يتوبوا إلى الله، ويستغفروه، ويعودوا إلى جادَّة الحق، ولكنَّهم كانوا في أودية مكابرتهم يعمهون.

آمن الناس جميعاً، فماذا يفعل الطاغية؟

أمر بالأخاديد فخدَّت في الطرقات، وأمر بإضرام النار فيها فأضرمت، وقال:

من رجع من الناس عن دينه فاتركوه ومن أصرَّ على ما هو عليه من الإيمان فأقحموه في النار.

هنا باب جديد من أبواب الموعظة لو كان للملك وبطانته السيِّئة قلوب تفقه وتشعر.

فالناس يتسابقون إلى النار هاربين من الكفر بعد الإيمان، مصرين على إيمانهم بالله، رافضين الحياة الدنيا كلَّها، راضين بنعيم الآخرة الذي ينتظر المؤمنين.

أما كان جديراً بالملك أن يسأل نفسه:

لماذا يفعل الناس هذا؟

كلاَّ، فهو في غمرات مكابرته القاتلة.

بل إنَّ موقفاً واحداً كان جديراً بإيقاظ شعور ذلك الطاغية المكابر، لأنه موقف يهزُّ الصخور الصمَّاء.

كان الملك ينظر إلى الناس وهم يتقاذفون مسبحين مكبرين ذاكرين الله في تلك النار، ورأى امرأة تحمل ابنها الرضيع تتجه إلى النار، فصوَّب إليها نظره منتظراً منها أن ترجِعَ حرصاً على رضيعها، ورآها تقف قليلاً، وظنَّ أنها سترجع، ولكنَّه فوجىء بها تلقي بنفسها مع رضيعها في النار، وتناقل الناس خبرها، وحدَّث أحد رجال الملك بما رأى وسمع فقال:

حينما تقاعست المرأة نطق رضيعها بلسان فصيح وصوت مسموع قائلاً:

«اصبري يا أمَّاه، فإنك على الحق»

يالها من عبارة عظيمة، ويالها من معجزة كبيرة، كانت هي آخر المواعظ قوَّة وتأثيراً، ولكنَّ القلب الجامد لم يتفاعل معها، فظلَّ في غمرة مكابرته وجهله وغفلته.

أسدل الستار على نهاية مؤسفة لذلك الملك المكابر الذي أهلك معظم شعبه، فما ذاق للراحة بعدهم طعماً بل أهلكهم الله في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار.

أورد ابن كثير في تفسيره روايات متعددة في هذه القصَّة العجيبة، أشار في بعضها إلى أن النار التي أحرقت المؤمنين قد خرجت من مكانها فأحاطت بالجبَّارين فأحرقهم الله سبحانه وتعالى بها، فخسروا الدنيا والآخرة، وفي ذلك أنزل الله قوله:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: 4-7].

وقد ذكر العلماء أن هنالك أخدودين آخرين، أحدهما كان في الشام على يد المكابر انطانوس الرومي، والآخر كان في فارس على يد الطاغية بختنصر، وأما الثالث المذكور في القرآن فهو الذي وقع في بلاد العرب، في نجران على يد الطاغية «يوسف ذو نواس»، كما تقول بعض الروايات.

ومهما كانت الروايات، فإن القصة قد حدثت كما ورد في سورة البروج، ولو لم يكن من عقاب فظيع للمكابر إلا قول الله عنه ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج: 4] لكفى، ولو لم يكن من أجر عظيم للذين ألقوا في النار إلاَّ وصف الله سبحانه وتعالى لهم بالإيمان لكفى، في قوله:

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: 7-8].

ومن طرائف ما يروى عن ذلك الغلام المؤمن «عبد الله بن التامر» ما رواه ابن كثير عن ابن إسحاق: أنَّ رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته،

فوجد فيها عبد الله بن التامر واضعاً يده على ضربة في رأسه، ممسكاً عليها بيده، فإذا رفعت عنها يده انثقبت دماً، وإذا أرسلت يده عادت إلى مكانها، وفي يده خاتم مكتوب فيه: ربي الله، فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بذلك فأمر بإعادته حيث كان.

ونقول: أما ـ والله ـ لو علم المكابرون بالنهايات المفزعة التي تنتظرهم في دنياهم وأخراهم، لكان لهم شأن آخر، ولكنَّها البصيرة المطموسة التي لا تبصر الحقائق الناصعة.

تأملوا معي هذه الأمور العظيمة:

- دابة فظيعة يقتلها حجر صغير يرميها به الغلام.
- رجل من جلساء الملك أعمى يشفيه الله من العمى على يد الغلام.
- رجال ونساء وأطفال مرضى تزول أمراضهم المزمنة على يد الغلام بإذن الله عز وجل.
- جليس الملك والراهب يصرّان على إيمانهما بالله فيشقهما الملك بالمنشار نصفين وهما لا يباليان بذلك.
- رجال الملك يتحطمون في الجبل، وغلام صغير يعود سالماً.
- رجال الملك يغرقون في البحر ويعود الغلام سالماً.
- يرمي الملك الغلام بسهم ـ تنفيذاً لنصيحة الغلام ـ قائلاً ـ باسم الله رب الغلام ـ فيموت الغلام بذلك السهم، بعد محاولات كثيرة فاشلة لقتله.

- مئات الناس المؤمنين ـ رجالاً ونساءً ـ يهون عليهم إلقاؤهم في النار مقابل صمودهم على الإيمان، ويقتحمون النار هروباً من الكفر وهم راضون مبتسمون.

- طفل رضيع يقول لأمه حينما هابت النار:

- «اصبري يا أمَّه فإنَّك على حق»

إن كل حالة من هذه الحالات جديرة بأن تحرِّك الصخرة الصمَّاء، وتهزُّ الجبل الأشم، فما بالها ـ مجتمعة ـ لم تحرِّك ساكناً عند ذلك الملك المكابر؟

إنها المكابرة التي تهلك أصحابها.

اللهم ثباتاً على الحقِّ يا رحمن

المكابر الرابع عشر
«ألهذا جمعتنا؟»

تكون المكابرة في أقصى حالاتها شدَّة وإغلاقاً، حينما يعيش المكابر مع صاحب الحق يراه ويسمع منه، ويعرف حقيقته، ولا يشك في صدقه وأمانته، ويمتُّ إليه بصلة القرابة القريبة التي تجلعه قادراً على رؤيته ومعرفته معرفة جليَّة لا غبار عليها، ولا شك فيها، ثم يلقي بذلك كلِّه جانباً، ويضرب به عرض الحائط، ويتمادى في مكابرته وإنكاره.

في هذه الحالة يكون القلب مغلقاً إغلاقاً محكماً ـ والعياذ بالله ـ وتكون النفس ضالَّةً منحرفة عن الصراط المستقيم، ويكون القلب كالأرض الجدباء التي لا تمسك ماءً ولا تنبت عشباً، ولا تحقق راحة لمن يسير فيها، أو يقيم عليها.

هكذا كان «أبو لهب» عمُّ النبي ﷺ، هذا التلميذ المتفوق في مدرسة التمرَّد والعصيان والمكابرة التي يشرف عليها منذ خلق آدم عليه السلام قائد المكابرين إلى النَّار «إبليس» نعوذ بالله منه، هذا الرجل الذي طمست بصيرته، وضلَّ عقله، وانحرف مزاجه، وغلبه شقاؤه، فما استطاع أن يرى ذلك النور الإيماني المتألق الذي يشرقُ به وجه ابن أخيه «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» عليه الصلاة والسلام.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما متحدثاً عن أوَّل موقف عدائي عمله «أبو لهب» مع رسول الله ﷺ:

خرج النبي ﷺ إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أنَّ العدوَّ مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدِّقوني؟ قالوا: نعم، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا، تباً لك، فأنزل الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ [المسد: 1-4].

في رواية: فقام أبو لهب ينفض يديه، وهو يقول مخاطباً ابن أخيه «محمداً ﷺ»: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: «تبت يد أبي لهب وتب».

قال المفسرون: «تبت يدا أبي لهب» إخبار من الله عن خسارته، و«تبّ» دعاء من الله عليه بالخسران والهلاك.

هكذا بدأت المواجهة الحاقدة الأولى من المكابر لكلمة الحقِّ، وهي مواجهة عنيفة كما رأينا،صريحة معلنة تدلُّ على سوء طوية الرجل، وقسوة قلبه.

من أبو لهب هذا؟

هو عم النبي ﷺ، واسمه: عبد العزَّى بن عبد المطب، وكنيته «أبو عتبة» وإنما أطلقوا عليه «أبا لهب» لحمرته وإشراق وجهه.

إنه من أشدِّ أعداء الحقِّ، ومن أكثر الكفَّار أذية لرسول الله ﷺ، ومن أعظمهم بغضاً له، وازدراءً به، وتنقُّصاً له ولدينه.

مكابرة من «الوزن الثقيل» جعلت صاحبها لايعرف معروفاً، ولا يرى نوراً، ولا يستوعب نصيحة أو إرشاداً.

لو كان في قلبه منفذ لبصيص من الخير لما أطلق عبارته القاسية من أوّل موقفٍ له مع الصادقِ المصدوقِ الأمين المؤتمن ابن أخيه «عليه الصلاة والسلام».

إنه أعرف الناس به، وأقرب كفار قريش إليه، ولكنَّه أبعدهم عنه وعن منهج الحق بمكابرته وحقده وعناده.

يقول ربيعة بن عبَّاد فيما رواه الإمام أحمد:

رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوقِ ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه ووراءه رجلٌ وضيء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول:

إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب ـ يصرف الناس عنه ـ فسألت عنه فقالوا:

هذا عمُّه أبو لهب.

وفي رواية أخرى عن ربيعة بن عباد نفسه يقول:

إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ـ في ذي المجاز ـ يقف على القبيلة فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله

إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئاً، وأن تصدقوني، وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، وكان وراءه رجل أحول وضيء ذو جمة، يقول ـ إذا فرغ الرسول ﷺ ـ من مقالته: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللاتَ والعزى، وحلفاءَكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولاتتبعوه.

ياله من مكابر عنيد، ويالها من نفس مغلقة لا تشعر بالحق، ولاتقوى على استيعاب الخير:

لقد بالغ أبو لهب في العداوة، وتجاوز فيها حدود الأعراف القبلية، والعلاقات الأسرية، وأصبح رمزاً بارزاً من رموز الجحود والنكران، وجنَّد نفسه، وزوجته وأهل بيته لهذه المهمة الشيطانية، بل إنَّ أستاذه ومعلمه الشيطان، قد جنَّده للباطل والجحود والنكران.

لقد وصل بالمكابرة أقصى حدودها حتى كتب الله عليه وعلى زوجته الشقاء الأبدي، وأنزل فيه سورة من سور القرآن الكريم، فيها دليل على إعجاز هذا الكتاب العظيم، وشاهد قاطع على أنه من عند الله علاَّم الغيوب.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1] أي: خابت وخسرت، وضلَّ عمله وسعيه، «وتب»: أي تحقق هلاكه، ووقعت خسارته.

وماذا بعد.؟

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: 2].

نقل ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ، لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب:

إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي.

ما رأيكم ـ أيها الأحبة ـ في هذا المنطق؟

ألا يدل على قلب مغلق؟

ألا يدلُّ على شخصية مكابرة مغرورة؟

لقد تمكن الشيطان من هذا التلميذ المتفوق في مدرسة العصيان فما سمح لشيء من الوعي أن ينفذ إلى عقله الذي عطله الغرور عن التفكير.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: 2].

نفي قرآني قاطع، يؤكد أن الرجل قد أصبح في الهالكين، فلا ماله يغني، ولا ولده ينفع، وقد عبَّر القرآن الكريم عن الولد بجملة «وما كسب» كما ذكر ذلك ابن عباس.

يا ترى، مانتيجة ذلك؟

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: 3].

نعوذ بالله من هذه العاقبة المشؤومة، وهذه النهاية المؤلمة.

أسرة تشقى شقاءً أبدياً بسبب المكابرة والغرور، وإعجاز قرآني يؤكد للناس في كل زمان ومكان أنَّ هذا القرآن الكريم من عند الله عز وجل.

ومن الذي يستطيع من الخلق أن يخبر بهذا الخبر الجازم عن نهاية أبي لهب وزوجته، وهما على قيد الحياة؟؟

إنه الله وحده الذي يعلم الغيب دون سواه.

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: 4-5] إنها امرأة المكابر أبي لهب، من سادات نساء قريش، كانت تكنَّى بأم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ومكابرته.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ـ قالت:

لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1]، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذمَّماً أبينا

ودينَه قلينا

وأمرَه عصينا

ورسوله الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال:

يا رسول الله، قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك.

فقال له الرسول ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: 45]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر الرسول ﷺ، فقالت:

يا أبا بكر، إني أخبرت أنَّ صاحبك هجاني؟

قال أبو بكر: لا وربِّ البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

وفي رواية، أن أبا بكر قال لها:

لا والله، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت:

إنك لمصدق.

فلمَّا ولَّت قال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله؟

قال ﷺ:

لا، مازال ملك يسترني حتى ولَّت.

هكذا تعمى بصائر أهل المكابرة، وهكذا يقود المكابرون بعضهم إلى النار والشقاء في الدنيا والآخرة.

ولنا في ختام هذه القصة أن نقف عند قول امرأة أبي لهب:

«إنك لمصدَّق»

تخاطب بذلك أبا بكر، لنرى كيف تحول المكابرة بين أصحابها وبين الانسياق للحق، واتباعه، فهي تؤكد أنا أبا بكر صادق، وهذا تأكيد ـ لاشك فيه ـ لقناعتها بأن محمداً ﷺ صادق، فلا هي، ولا زوجها أبو

لهب، ولا أحد من المشركين يستطيع أن يطعن في صدق رسول الله ﷺ، أو يتجرَّأ أن يصفه بالكذب، وهنا يكون العجب من عصيانه والكفر بما جاء به، مع يقينهم بأنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

لقد جرفت المكابرة أبا لهب، كما جرفت كل مكابر قبله وبعده إلى النار وبئس المصير.

كيف كانت النهاية؟

قال ابن إسحق: وكان أبو لهب قد تخلفَ عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت ديناً لأبي لهب عليه، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه، قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ وكان غلاماً للعباس بن عبد المطلب:

كنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح، أنحتها في حجرة زمزم، فو الله إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من خبر انتصار المسلمين في بدر، إذ أقبل أبو لهب يجرُّ رجليه، وفي عينيه الشر، حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب «الشاعر» قد قدم، قال أبو رافعٍ: فقال أبو لهب له: هلمَّ إليَّ فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه فقال:

يا ابن أخي، أخبرني كيف أمرُ الناس؟ قال:

والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله، ما لمت الناس على ذلك، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طُنُبَ الحجرة بيدي وقلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة، فبلغت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

هكذا مصير المكابرين.

لم يمت إلا بعد أن ذاق مرارة الهزيمة، وطعم الذُّلِّ والهوان.

أصابته العدسة، وهي مرض معدٍ كان الناس يتحامون من يصاب به كما يتحامون المصاب بالطاعون.

أصابت أبا لهب العدسة، فتركه أبناؤه بعد موته ثلاثة أيام لا يقربونه حتى أنتن، حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه؟ فقال ابنا أبي لهب:

إنا نخشى عدوة هذه القُرحة، قال: فانطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا نضحا بالماء عليه من بعيد، ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة.

وما يروى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب الذي دفن فيه إلا تسترت بثوبها حتى تجوز.

هكذا كانت نهاية المكابر المغرور بماله وولده، هكذا تكون نهاية كل مكابر يحارب الحق في كل زمان ومكان.

نسأل الله السلامة وحسن الختام.

المكابر الخامس عشر
«فرعون هذه الأمة»

هنالك أشخاص من البشر ينفث فيهم قائد المكابرين، والمتمردين والمغرورين «الشيطان» نعوذ بالله منه، روحه الخبيثة كلَّها، ويرضى بهم نواباً له في محاربة كل خير، ومناصرة كل شر، ويجد فيهم نفسه المكابرة التي عصى بها ربه عز وجل فأبى أن يسجد لآدم عليه السلام، وكأنني أنظر من خلال نافذة الخيال إلى صورة إبليس البشعة جالساً على عرشه الخبيث مسروراً بما يرى من قيام بعض المكابرين من بني آدم بدوره الشيطاني قياماً قد يعجز عنه هو بنفسه الأمَّارة بالسوء.

من المكابرين الذين سلكوا طريق الشر منذ نعومة أظفارهم أو «مخالبهم» فما عادوا منه أبداً، ذلك الرجل الذي أفرغ فيه الشيطان كلَّ ما لديه من عناد ومكابرة وكفر وجحود ومنحه ـ فيما أظن ـ أعلى وسام في مدرسته الشيطانية الخبيثة لما رأى من إخلاصه للشر وحرصه عليه.

ذلك الرجل المتزمِّل في ثياب الباطل منذ عرف الحياة إلى أن ودعها ذليلاً حقيراً، إنه:

«أبو جهل»

وكفى بهذه الكنية عليه دليلاً..!

فقد كان يكنى أبا الحكم ولكنَّ إيغاله في طريق الجهل والضلال جعله جديراً بكنية «أبي جهل» جدارة لاينافسه فيها أحد.

«إنه عمرو بن هشام المخزومي القرشي المكي».

رجل ذو همَّة، ونفس قوية، وجلد على العمل والسعي فيما يريد، لا يكل ولا يمل، ولا يتوقف عن تحقيق ما يريد، ولكنه استخدم ذلك كله في الباطل فأعماه ضلاله عن الحق، وظل يسعى بلا توقف، ويعمل بلا كلل، ويجتهد دون ضعف في مواجهة الحق الذي سطع نوره، ولمع نجمه، وفي محاربة النبي ﷺ الذي لا يشك أبو جهل نفسه في صدقه وأمانته، حتى دفن صريعاً ذليلاً في قليب الذلة والمهانة الذي دفن فيه سبعون من صناديد قريش في غزوة بدر الكبرى.

أبو جهل:

مواقف كثيرة في محاربة الحق، تتشابه في دوافعها ونتائجها، تدلُّ على وعي مطموس، وعقل مسلوب، وقلب كالجلمود لا يحمل شعوراً حياً يدرك به الحقيقة وإلاَّ فإنه بذكائه قد اطلع على ما أكد له أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام على حق، وصرح بها في أكثر من موقف، وأوضح بلسانه أنه يعرف أن محمداً على حق ولكنه حسده ه وحسد بني هاشم الذين ذهبوا قبل بعثة النبي ﷺ بفخر سدانة البيت وسقايته، ورفادة الحجيج، فلم يحتمل وجدان أبي جهل المملوء بالحسد القاتل أن يرى بني هاشم يذهبون بشرف النبوة أيضاً.

الحسد؟ نعم هذه الصفة المذمومة التي عصى بها الشيطان ربَّ العباد حسداً لأدم، كما عصى بها أبو جهل رسول ربِّ العباد حسداً لبني هاشم.

نتعوذ بالله من الحسد.

لقد وقف أبو جهل مواقف واضحة مع رسول الله ﷺ اتضح له فيها الحق، وبان له الصواب، وتجلى له النور الساطع في دين الله الذي أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، ولكنَّ مكابرته المستحكمة في عقله وقلبه، منعته من الدخول في حوزة الإيمان، والاستمتاع بلذة اليقين والعبادة لرب العالمين.

ولو لم يكن من عوامل ظهور الحق التي رأها أبو جهل إلا ذلك الصعود المستمر لرسول الله ﷺ ودعوته وأتباعِهِ برغم مكائد المشركين التي لاتنقطع لكفى.

فكيف به وقد رأى بأم عينيه ما لم يره غيره من كفار قريشٍ من دلائل النبوة وصدق الرسالة؟؟

ماذا رأى؟؟

جرى ذات يوم نقاش طويل بين قريش ورسول الله ﷺ بين لهم فيه الرسول الحقَّ، وأوضح لهم الصواب، وكشف لهم حقيقة ما هم عليه من الجحود والكفران.

ثم قام رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل بن هشام: يا معشر قريش إنَّ محمَّداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر كبير، فإذا سجد، فضخت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما شاؤوا، فلما أصبح اليوم التالي، أخذ أبو جهل حجراً، ثم جلس ينتظر رسول الله ﷺ، وغدا رسول الله كما كان يغدو، وكان قبلته الشام، فكان إذا صلى بين الركنين الأسود واليماني، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ، احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل به نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه، مرعوباً قد يبست يداهُ على حجره، حتى قذف بالحجر من يده، وقامت إليه رجال من قريش فقالوا له:

ما بك يا أبا الحكم؟؟

فقال: قمت إليه لأفعلن ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قَصَرَيَهِ، ولا أنيابه لفحل قطُّ، فهمَّ أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فروي عن رسول الله ﷺ أن ذلك جبريل ولو دنا منه لأخذه.

ما رأيكم ـ أيها الأحبة ـ في هذا الموقف؟

أليس موقفاً جديراً بأن يهز قلب أبي جهل من الأعماق، وأن يوقظ في نفسه الشعور بصدق هذا النبي الكريم، والإيمان بأن في اتباعه الخير والصلاح والفلاح؟

أما كان هذا الموقف جديراً بأن يعيدَ إلى أبي جهل رشده وينير بصيرته؟

بلى ـ والله ـ هو كذلك ولكنَّ المكابرة تحول دون ذلك، وتقف حائلاً دون الإحساس بالحق والاستجابة له، فإذا أضيف إليها الحسد، صارت كالليل البهيم الذي لا يسمح للعين برؤية شيء.

هل وقف الأمر عند هذا الحد؟

كلا.. فقد تعددت مواقف المعجزات النبوية والموعظة والعبرة، ولكنها كانت تصطدم ـ في كل مرة ـ بمكابرة أبي جهل وغروره، وإعراضه، بينما تكفي واحدة منها أن تهزَّ قلب الغافل، وتحرك همة الخامل، وتعلم الجاهل.

هيا بنا نتأمل هذا الموقف الآخر.

قدم رجل من إراش، أو إراشة، بإبل له إلى مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ـ ورسول الله ﷺ ـ في ناحية المسجد جالس، فقال الإراشي: يا معشر قريش: من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟

فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس ـ وأشاروا إلى رسول الله ﷺ ـ اذهب إليه، فإنه يؤديك عليه، وإنما أرادوا الاستهزاء به لما يعلمون من العداوة بين رسول الله ﷺ وبين أبي جهل.

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله؛ إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي عنده، وأنا غريب، وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه، فأشاروا إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله.

قال رسول الله ﷺ: انطلق إليه، وقام معه، فلما رأى الكفار ذلك، قالوا لرجل منهم، اتبعه فانظر ماذا يصنع.

قال: وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه الإراشي حتى جاء دار أبي جهل، فضرب عليه بابه، فقال:

من هذا؟

قال: محمد، فاخرج إليَّ، فخرج إليه وما في وجهه من رائحة قد انتقع لونه، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: أعط هذا الرجل حقه.

قال أبو جهل: نعم، لا تبرحْ حتى أعطيه الذي له.

قال: فدخل داره فخرج إليه بحقِهِ فدفعه إليه، قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإراشي: إلحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس القرشي، فقال لهم: جزاه الله خيراً، فقد ـ والله ـ أخذ لي حقي.

قال وجاء الرجل القرشي الذي بعثوه لينظر لهم ما يجري فقالوا:

ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلاَّ أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له محمد: اعط هذا حقه، فقال أبو جهل:

نعم، لاتبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه.

قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء إلى القوم، فقالوا له:

ويلك مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قطّ، قال: ويحكم، والله ما هو إلاَّ أن ضرب على بابي، وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإنَّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامتة ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قطّ، والله، لو أبيت لأكلني.

هكذا تتكرَّر المواقف الجليلة، والمعجزات الكبيرة، وتبقى النفس المكابرة تعمه في غيِّها، وتغرق في غرورها وإعراضها.

يقول ابن إسحاق: لقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ، وبغضه إيَّاه، وشدته عليه، يذله الله سبحانه وتعالى له إذا رآه.

ونقول:

هنالك سبب لهذه الحالة ألا وهو قوة الحق الذي جاء به الرسول الله ﷺ، تلك القوة التي تضعف أمامها نفوس أهل الباطل مهما تظاهروا بالمكابرة أمام الناس.

ومع ذلك فقد بقي أبو جهل على عداوته الشديدة، ومكابرته التي أعمت بصيرته عن رؤية فجر الحق الساطع.

قال مرة لرسول الله ﷺ: لتتركن سبَّ آلهتنا أو لنسبَّنَّ إلهك الذي تعبد، وفي ذلك نزل قول الله تعالى :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

ومعنى ذلك أن أبا جهل ماض في مكابرته لاتنفع معه موعظة، ولا تؤثر فيه عبرة، ولاتعيده إلى الحق حجَّة، وهذه الصفة من أهم صفات «المتميزين» من تلاميذ رائد المكابرة والغرور، والكفر والجحود، «إبليس» نعوذ بالله منه.

لما سمع أبو جهل بشجرة الزقوم، ضحك مستهزءاً، وقال لقريش: أتدرون ما الزقوم؟ هو تمر يضرب بالزبد، ثم قال موغلاً في الاستهزاء:

هلمَّ فلنتزقم.

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: 34-44].

وفي هذا تأكيد قرآني لما بلغه أبو جهل من الشقاء في الآخرة كما شقي في الدنيا.

إنَّ مواقف هذا الرجل تدل على مدى ما وصل إليه من قسوة القلب، وانغلاق النفس عن قبول الحق، وكأني بكلِّ عاقل يتابع هذه المسيرة «العنادية» يقول: ألم يستطيع أبو جهل أن يستوعب هذه

الدروس التي كان يتلقاها يومياً في رحلة مكابرته الطويلة، ألم تستطيع فطنته أن تحدِّد النتيجة المناسبة لكل ما يمر به من عبر وعظات؟؟

تأملوا معي هذا الموقف:

حينما نزل قوله تعالى عن النار ـ نعوذ بالله منها ـ: «عليها تسعة عشر» قال أبو جهل هازئاً برسول الله وما جاء به من الحق، وما أوحي إليه من القرآن الكريم:

يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار، ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، وكثرةً، أفيعجز كلُّ مائة رجل منكم عن رجل منهم؟

فأنزلَ الله تعالى في ذلك:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: 31].

عجباً لهذا الرجل!

يدَّعي أنه صاحب حكمة وهو ينطق بهذا القول الذي يدل على شخصية غير سويَّة، ولو لم يكن في قوله من الخطل والخلل إلاَّ وضعه مائة رجلٍ من قريش مقابل جنديٍّ واحدٍ من الملائكة لكفى، فكيف إذا أضيف إلى ذلك هذا التصوُّر الزائف لمعنى الملائكة، والنَّار وعذابها، والآخرة وحسابها؟!

لو قدِّر لهذا الرجل أن يثوب إلى رشده، وأن يُزيح عن قلبه ظلام الكفر، وعن عقله غبار الوهم ,لرآى من خَطَل رأيه، وخَلَل تفكيره ما يستعيذ الإنسان من الوقوع في مثله.

ولكنها «المكابرة» تبقى صفةً من صفات الضلال لا يهتدي صاحبها إلى الحق، ولا يسلك إليه سبيلا.

إنَّ صورة ارتفاع شأن نبيِّ الله محمد عليه الصلاة والسلام، وانحدار شأن المشركين صورةٌ واضحةُ المعالم، معروضة أمام بصائر العقلاء، لا تخطئها عيونهم، ولا تشكُّ فيها قلوبهم، وإنها لا تخفى على عاقل، ولا تغيب عن نظر متأمِّل، ولكنَّ مكابرة أبي جهلٍ كبَّلتْه، وألقتْ به في سجنها المظلم الرَّهيب.

وهكذا كانت حالة المكابر الأوَّل «الشيطان» نعوذ بالله من شرِّه يرى الحقَّ واضحاً ويأبى أنْ يتَّبعه أو يستجيب له.

لقد دَأبَ أبو جهل على إعلان العداوة لرسول الله ﷺ، والحرب الشَّعْواء على كلِّ من آمن به، واتّبع دينه الحق ,حتى أصبح قائداً لأهل الباطل في مواجهة أهل الحقّ.

قال ابن إسحاق:

كانت بنو مخزوم يخرجون بعمَّار بن ياسر وبأبيه وأمِّه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميتْ الظهيرة يعذِّبونهم برمضاء مكة، فيمرُّ بهم رسول الله ﷺ، فيقول فيما بلغني: «صبراً آل ياسر ,موعدكم الجنة»،

حتى مات ياسر تحت التعذيب، وتقدّم أبو جهل بِعَنْجَهِيَّتِهِ وكبريائه إلى سُمَيَّة أمِّ عمار ـ رضي الله عنها ـ وهي تحت وَطْأَةِ العذاب، فطعنها بحربته الغاشمة الظالمة في فرجها فقتلتها.

قتلها؟

نعم، قتلها بهذه الصورة البشعة فباء بإثمها، ومنحها ـ بفضل الله عليها ـ لقب «أوّل شهيدةٍ في الإسلام» ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

إنَّه عَمَل الطُّغاة الذين أصبحوا عبيد رغباتهم وأهوائهم.

لقد مرَّت الأحداث سراعاً، وتعدَّدت المحاولات من كفَّار قريش بقيادة «أبي جهل» للقضاء على دعوة الإسلام في مهدها، وللتخلُّص من خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانت كل محاولة تنتهي بالفشل الذَّريع، ولكنَّ أبا جهلٍ ومن يسير معه لم يكونوا يفهمون إلا لغةَ الحقد والحسد ,تلك اللغة التي تدفعهم إلى منطق الباطل، وتسوقهم إلى الهلاك والخسران.

وفي كل موقفٍ عدائيٍّ للحق، تبرز شخصيةُ أبي جهل، حاملةً لواء المبادرة في طريق الشرّ، بالرغم من أنَّ الأحداث التي كانت تجري كانت جديرةً بإيقاظ الإحساس بالحق، والشعور به.

لقد أجمع أهل الكفر بقيادة عددٍ من المكابرين يتقدَّمهم أبو جهل على كتابة صحيفة بمقاطعة بني هاشم الذي أبوا أنْ يسلموا رسول الله ﷺ إلى قريش لقتله، بل تعاقدوا وتعاهدوا ـ مسلمُهم وكافرُهم ـ على حماية ابنهم رسول الله من كيد المشركين، المسلمون من بني

هاشم فعلوه ديناً، والكافرون منهم فعلوه حميّةً، وتمَّت المقاطعة الجائرة بناءً على صحيفة كتبوها تضمَّنت عهوداً ومواثيق، ألاَّ يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ أبداً، حتى يُسلموا لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ليقتلوه.

ومضت على هذا العهد الجائر ثلاث سنوات، واشتدَّ عليهم البلاء والجَهْد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون لهم طعاماً يَقْدُم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه.

ولما مضت السِّنون الثلاث تلاوم رجالٌ من بني عبد مناف وقُصيّ، وبعض رجالٍ من عقلاء قريش على هذا العهد الجائر، واتفقوا على نقضه.

وجرت محاورات في الأمر كان أبو جهلٍ يحمل فيها لواء الدعوة إلى استمرار المقاطعة بلا هوادة، ولولا أنَّه غُلِبَ على الأمر لما رضي به أبداً.

ولا بأس أن نتأمَّل موقفاً من مواقف مكابرة أبي جهل في شأن صحيفة المقاطعة:

بدأ زهير بن أبي أميَّة بالدعوة إلى نقض الصحيفة، حيث غدا إلى المسجد الحرام عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هَلْكَى، لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

هنا وقف أبو جهل وقال غاضباً: كذبتَ، والله لا تُشَقُّ، قال زمعة بن الأسود:

أنتَ والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كُتِبَتْ. وأيَّد قوله عددٌ من رجال قريش.

هنا، سكن أبو جهل مخذولاً وقال: هذا أمرٌ قُضي بليل، وتشاورتم فيه في غير هذا المكان.

وحينما أرادوا شقَّ الصحيفة وجدوا الأرَضَة قد أكلت كلَّ ما كتبوا فيها إلا جملة «باسمك اللهم».

يا له من موقف عجيب!

إنها معجزة من المعجزات تتجلَّى أمام العدوِّ الأكبر للرسول ﷺ، وأمام عُتاة المشركين، ولكنَّ المكابرة لم تسمحْ لأيٍّ بصيصٍ من نور أن يدخل إلى قلوبهم.

أين عقلك يا أبا جهل؟

أستاذك العنيد «الشيطان» نعوذ بالله منه يقول: لا يمكن أنْ يحضر العقل حينما تحضر المكابرة.

لقد مرَّت الأيام ,ودين الله يظهر، ورسوله عليه الصلاة والسلام ينتصر، والأحداث تؤكد أن الحق مع هذا النبي الكريم، ولكن المكابرين لا يفقهون.

إنَّ حَدَث الهجرة المحمدية وحده كفيلٌ بإيقاظ القلوب الغافلة، فخروج رسول الله ﷺ من بين المشركين المصطفين لقتله، ووضعه التراب على رؤوسهم، واختفاءَه في الغار، وعثرة حصان سُراقة بن مالك حتى ساخت قوائمه في الأرض حينما أراد أن يعود برسول الله عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبي بكر إلى كفَّار قريش لينال جائزتهم الكبيرة، وما حدث في خيمة «أم معبد»، وما جرى في المدينة بعد ذلك من قيام دولة الإسلام، إنَّ ذلك كلَّه جديرٌ بأن يعيد الإنسان إلى رشده وينتشله من مستنقع مكابرته وغروره، ولكنه مع الأسف لم ينجح مع عقل أبي جهل تلميذ المدرسة الشيطانية الكبرى.

إلى أين يتجه هذا الرجل؟

كلُّ الشواهد تؤكد أنه ينطلق بخطوات سريعاتٍ إلى نهايته المفجعة، وهو عن ذلك غافل، لأن أحلامه الكاذبة كانت تطغى عليها فيتخيل سقوط دعوة الحق، ونهاية سيد الخلق في كل لحظة.

كيف كانت نهاية المكابر؟

حينما وصل إلى قريش خبر نجاةِ قوافلهم التجارية بقيادة أبي سفيان، كرهوا المسيرَ لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: لقد نجَّى الله قوافلنا، وسلَّم لنا أموالنا فلا حاجة بنا إلى مواجهة محمدٍ وأصحابه.

هنا جُنَّ جنون أبي جهل، وبكَّتَ القوم، واتهمهم بالجبن وشبَّههم بالنساء، وأقسم ألاَّ يعود إلى مكة حتى يصل بالناس إلى بَدْر، حيث تُنحر الجزور وتقام الألعاب وتغنِّي لهم القيان حتى يتسامع العرب بقريشٍ وقوَّتها.

مكابرةٌ لا تجلب إلاَّ الدَّمار.

ومضى بالناس إلى بدر ,وجرت المعركة ,وانطلق فَتَيانِ من المسلمين نحو أبي جهل وهما «معاذ بن عمرو بن الجموح» و«معوّذ بن عفراء» فتعاوراه بسيفيهما حتى قتلاه.

ثم جاء عبد الله بن مسعود وبه رمق فاعتلى صدره واحتزَّ رأسه ويقال إن أبا جهلٍ قال له: «لقد ارتقيتَ مُرْتَقَىً صعباً يا رويعيَ الغنم».

هنا انطفأت روح المكابر العنيد، لقد كان يركض بقدميه رَكْضاً حثيثاً إلى هذه النهاية المؤسفة.

ومما يروى أن أبا جهل كان يقاتل في معركة بدر وهو يرتجز:

ما تنقم الحرب العَوانُ منِّي بازلُ عامين حديثٌ سنِّي

لمثل هذا ولدتْني أمي

نعم، لمثل هذا اليوم الدَّامي ولدتْه أمُّه.

هنا في هذا المقام رُوي أن رسول الله ﷺ قال عن أبي جهل لمَّا رآه صريعا: «كان هذا فرعونَ هذه الأمة».

ويا له من تشبيهٍ نبوي بليغ.

إنَّ مسيرةَ مكابرة فرعون في عداوته لموسى ـ عليه السلام ـ مع حدوث عددٍ من المعجزات والشواهد على صدق رسالته، لشبيهةٌ بمسيرةِ أبي جهلٍ في عداوته لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، مع حدوث عددٍ من المعجزات والشواهد على صدق رسالته.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه

وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه

وحتى نقف على شيء من رغبة المكابر في تحقيق أمانيِّه بسقوط دعوة الحق التي يعاديها، واستغراقه في تلك الأمانيِّ، ووقوف تلك الرغبة حاجزاً دون إيمانه بالحقِّ، هيَّا بنا نتأمَّلْ موقف أبي جهل من قصة الإسراء والمعراج:

بعد عودة رسول الله ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج إلى مكة، أصبح واجماً ـ ساكناً ـ يخشى إنْ بدأ فأخبر قومَه بما رأى أنْ يبادروا إلى تكذيبه.

فتلطَّف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإخبارهم أوَّلاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة.

كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد الحرام وقد بدا عليه الوجوم ,فرآه أبو جهلٍ على تلك الحالة فقال له:

هل من خبر؟

فقال رسول الله: نعم.

فقال أبو جهل ـ في شَغَف ـ: وما هو؟

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: إني أُسري بي الليلة إلى بيت المقدس.

قال: إلى بيت المقدس؟

قال: نعم.

هنا شعر أبو جهل بفرح كبير، لأنه ظنَّ بأحلام المكابر أنَّ هذا الخبر سيكون من أبوابِ سقوط محمد عليه الصلاة والسلام عند قومه، وقد وقر في نفسه المكابِرَةِ أن هذا الخبر لا يمكن أن يكون صدقاً أنَّ الناس لن يصدِّقوا محمداً بعده في قولٍ أبداً.

قال لرسول الله ﷺ، في لهفةٍ:

أرأيتَ إنْ دعوتُ قومك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟

قال: نعم.

ففرح أبو جهل، وأراد جَمْع قريش ليسمعوا من رسول الله ﷺ هذا الخبر العجيب، فيبادروا إلى تكذيبه.

وفرح رسول الله ﷺ، لأنه كان يريد اجتماعهم ليخبرهم ذلك ويبلِّغهم ،وشتَّان بين المرادين.

نادى أبو جهل قريشاً، وجمعهم من أنديتهم، وقال لرسول الله ﷺ:

أخبرْ قومك بما أخبرتني به.

فقصَّ عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى، وأنَّه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلَّى فيه.

فمن بين مصفِّق، ومن بين مصفِّر تكذيباً له، واستبعاداً لخبره، وطار الخبر في أرجاء مكة، وجاء أناسٌ من قريش إلى أبي بكر وأخبروه بما سمعوا من رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه.

فقالوا: والله إنه ليقول.

فقال ـ مُوْقناً ـ: إنْ كان قاله فلقد صدق.

ثم جاء أبو بكر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وحوله المشركون، فسأله عن ذلك، فأخبره، فسأله عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون ما يؤكِّد صدق رسول الله ﷺ، وفي الصحيح أن المشركين هم الذين سألوه.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: فجعلت أخبرهم عن آيات بيت المقدس فالتبس عليَّ بعض الشيء، فجلَّى الله لي بيت المقدس، حتى جعلت أنظر إليه دون دار عقيل، وأنعته لهم.

فقالوا: أما صفة بيت المقدس فقد أصابها.

ماذا صنع أبو جهل:

لقد طار فرحاً بهذا الموقف، وبالغ في الحديث عن كذب رسول الله ﷺ فيه، وحاشا الصادقَ المصدوقَ أن يكذب ولكنها النفوس المريضة بضلالها، المكابرة تتعلَّق بكلِّ شيء.

إن رسول الله ﷺ هو الذي قالوا عنه: ما جرَّبنا عليك كذباً وإن أبا جهل ومن سار معه لموقنون بأن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يكذب، ولكنه الضلال دفعهم إلى اغتنام فرصة هذا الخبر «الكبير جداً» لينالوا به من رسول الله وليقنعوا الناس بتكذيبه.

لقد كان في وصف رسول الله ﷺ لبيت المقدس وصفاً دقيقاً ما يمكن أن يؤكد للمكابرين صحة الخبر، وصدقَ من رواه، ولكنَّ المكابرة لا تسمح برؤية الحق.

لقد أقام الله سبحانه وتعالى على القوم الحجة، وأنار لهم المحَّجة فآمن من آمن، وكفر من كفر.

هكذا تكون مواقف المكابرين معاديةً للحق دائماً.

وبعد....

فإن قصص المكابرين كثيرة جداً ـ كما أشرت إلى ذلك في المقدمة ـ تحتاج إلى مجلَّدات، ولو استطردت في هذا الموضوع لخرج في أجزاءٍ كثيرة، والمكابرون الذين أوردتهم في هذا الكتاب هم من أشهر المكابرين على مستوى البشرية كلِّها.

إن التَّشابه بين مواقفهم ـ على مدى العصور ـ واضحٌ لكل متابع متأمِّل، فهم ينطلقون من منطلقٍ متشابه يتمثَّل في رفضهم الحقَّ، ومحاربتهم لأهل، وحرصهم على نشر ضلالهم وباطلهم، وسعيهم الدائب إلى تشويه صورة الحق في أذهان عامة الناس.

وإنَّما سقت أخبار هؤلاء المتفوِّقين من تلاميذ الشيطان الرجيم ـ نعوذ بالله منه ـ لتفطن عقولنا إلى أتباعهم وأشباههم في زماننا هذا، فلا نخدعَ بزيفهم الذي ينشرونه عَبْر وسائل الاتصال المذهلة.

ولكي نأخذ من أخبارهم، وبداياتهم ونهاياتهم المتشابهة موعظة وعبرة، حتى لا نيأس حينما نرى للمكابرين صولات وجولات، فيها بريقٌ خادع، ولها ضجيج يُصِمُّ الآذان، فإنَّ نهاياتهم قريبة مهما طال الطريق، وإن أهل الحق لمنتصرون مهما كانت العوائق.

والحمد لله ربّ العالمين

وإنَّ لي أملاً أن يكون في ثنايا هذا الكتاب موعظة وذكرى لمن يطَّلع عليه ممَّن ابتُلي بصفة المكابرة والعناد، فأحظى بأجر عودته إلى الحق.

إنَّ المكابرةَ داءٌ عُضال، يظلُّ يوغل في عقل الإنسان وقلبه حتى يكون سبباً في هلاكه في الدنيا والآخرة.

أسأل الله عز وجل أن يعافينا مما ابتلى به المكابرين من البشر من ضلال العقل، وقسوة القلب، وموت الضمير، إنه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين